سلسلة الأدب السلوفاكي
(8)

Pavol Rankov
V tesnej blizkosti

بافول رانكوف
قريب جداً

ترجمة
د. غياث الموصلي
Dr. Mousli Ghias

Pavol Rankov
V tesnej blizkosti
بافول رانكوف
قريب جداً

سلسلة الأدب السلوفاكي

(8)

Pavol Rankov
V tesnej blizkosti

بافول رانكوف
قريب جداً

ترجمة

د. غياث الموصلي

العنوان الأصلي: قريب جداً
V TESNEJ BLIZKOSTI
المؤلف : بافول رانكوف
Writer: PAVOL RANKOV
ترجمة : الدكتور غياث نديم الموصلي
Translation: Dr.Mousli Ghias
المراجعة اللغويه: الدكتور فرحان السليم
Dr. Frarhan Salim
العنوان: حمص-الدبلان، شارع الحسامي
البريد الالكتروني :ghiasmousli2004@yahoo.com
عدد النسخ: 800
موافقة وزارة الإعلام رقم:94673 تاريخ 2007/5/10

That book has received a subsidy from the Information Centre for Slovak Literature in Bratislava

مقدمة المترجم

عظمة الحكاية يأتي من قدرتها على دخول الأبواب المغلقة، ولكن شهرتها ، وانتشارها مرتبطان بالزمان ، والمكان اللذين صدرت فيهما ، وخاطبت فيهما عقول الناس. ربما لا تكون بعض حكايات بافول رانكوف تخاطب القارىء العربي بشكل مباشر ، لكنها مع ذلك تحتوي في بعض خباياها على مواضيع شائقة، لا بل مثيرة ، ولهذا السبب أعتقد أنها ستجد مكاناً ضمن الترجمات الموجودة في السوق العربي للأدب العالمي المترجم ، وهذا بالذات ما أعمل له مذ أخذت على عاتقي ترجمة نماذج من الأدب السلوفاكي إلى العربية.

الكلاب

نهاية الأمر ، إنها كلاب سوداء ، نعود إليها مرارا وتكرارا ، ولا أفهم حتى الساعة سبب تقديري وعرفاني لها بالجميل ، لاسيما حين تداهمني فكرة كونها ليست مجرد حيوانات ، بل كائنات حية تلاحق أرواحنا ، وتتقمص شخصيتنا .

إيان ماك إيوان
الكلاب السود 1922

لا أتذكر الآن بالضبط ، متى راودتني تلك الفكرة ، فكرة أن علاقتنا ستنتهي بجريمة. لقد خرجت على الأغلب من الأعماق المجهولة لتفكيري ، وهاجمتني ، ولم يكن بوسعي طوال تلك المدة أن أتخلص منها .

بالرغم من أن المؤلف يحاول جاهداً إخبارنا أن تلك الفكرة قد داهمته بشكل عارض ،إلا أن عليه من الناحية الفنية ، أن يخبرنا " متى فكر بتلك الجريمة للمرة الأولى"

إنني عموماً لا أستسيغ أولئك الذين يتبجحون باستقراء المستقبل ، وليست لديَ رغبة بمجاراتهم ، وذلك بالرغم من توقعي حدوث شيء ما ، ولأن مثل هذه التوقعات بالأصل ليست غريبة عني ، ويمكن القول إنها كانت تراودني من حين إلى آخر، وحين تخذلني ، فإني بكل بساطة أنسى الأمر .

حدث معي ما حدث منذ ما يقارب السنة ، حين انتقلت في أواسط نوفمبر، على ما أعتقد ، إلى حينا عائلة مكونة من رب أسرة ، وزوجته، وابنتهما "ليليان" ذات الخمسة عشر ربيعاً . عائلة عادية لا تلفت الانتباه إليها بشيء معين.

كانت "ليليان" تكبر ابنتنا " فيرونيك" بعام واحد ، وأتذكر بشكل جيد لقاءهما الأول ، حين رأيتهما تتبادلان الحديث على ناصية شارعنا، حيث تلمسنا ضوءاً شاحباً آتياً من مصباح شارع ساعدهما على الرؤية. كانت كلبة "ليليان" لا تزال في حينها جروة صغيرة ، وكانت طوال الوقت تحملها تحت إبطها ، وتغطيها بمعطفها خوفاً عليها من نسمة الريح الباردة ، أما كلبنا"ريكي" أبو لحية ، ذو الأربع سنوات بالتقريب فقد كان طوال الوقت يدور من حولهما في حالة استنفار ، مستعيناً بنباحه الذي كان يطلقه بسبب ، وبدون سبب ملوحاً طوال الوقت بعصبية واضحة ذيله القصير. كانت ابنتي "فيرونيك" تقف ملتصقة ب "ليليان" ، ويبدو لي ،أنها كانت تشرح لها موضوعاً في غاية الأهمية، و وجدت "ليليان" بالمقابل مشدودة إلى حديثها ، وعرفت ذلك من تعابير وجهها التي كانت تشير تارة إلى استغرابها ، وحيناً إلى رضاها ، ومن حين إلى آخر كانت تطلق ابتسامة هادئة ، ولا تلبث أن تعود إلى حالة الاستغراب رافعة حاجبيها، ولكنها تعود لتضحك ، وتهز رأسها مؤكدة موافقتها على كل ما تسمعه من جديد .

كانت ابنتي "فيرونيك" صبية في الرابع عشرة من عمرها ، وكان العالم بالنسبة إليها عبارة عن خليط غير متجانس من الأحاجي ، والأسرار، شكّل فيها ، والداها مع المدرسة ، إضافة إلى الأصدقاء ، والجيران مواضيع

شائكة نسجتها الصدف. ما السبب الذي دعاهم إلى امتحانها اليوم في مادة التاريخ ، و لم يمتحنوها في الكيمياء؟ ولماذا تجادلت مع والدتها في المطبخ ، ولم تتجادل معها في غرفة الجلوس؟ وما السبب الذي دعا زميلها "بيتر" إلى تربية قطة بدلاً من تربيته لكلب؟. نادراً ما كانت "فيرونيك" تتقاسم همومها ، وأفكارها مع الآخرين لاعتقادها أن لا أحد يمكنه فهم منطقها الخاص الذي يمكنها من خلاله أن تجد إجابات وتفسيرات على كل تساؤلاتها . لقد امتحنتها المدرسة في مادة التاريخ لأنها في الحصة السابقة امتحنت "ريخارد" الذي كانت "فيرونيك " معجبة به. وكيف توصلت المدرسة إلى معرفة ولعها ب"ريخارد" . هذا الأمر بحد ذاته لم يكن يقلقها، ولكنها بحثت من خلاله عن شرح للسبب الذي دعا مدرسة التاريخ إلى فحص فتاة مباشرة بعد فحصها لصبي أعجبها . وحسب منطقها فإن المشادة الكلامية التي حدثت بيني وبين زوجتي بسبب المصروف كان سببها المباشر حصولها على علامة سيئة في مادة التاريخ . كلانا كنا منزعجين ، وقلقين على مصير ابنتنا ، ومستقبلها ، ويحدونا أمل ، ورغبة في أن تجد لنفسها في المستقبل مكاناً لائقاً تثبت فيه وجودها. والمشادة الكلامية التي جرت بيننا لم تكن سوى نوع من التنفيس الداخلي لاحتقان مزمن ، كما أن قطة زميلها" بيتر" سمعت شجارنا في المطبخ، ومن شدة خوفها، غرزت أظافرها في قدمه. لقد ارتبطت تلك الأمور في ذهن ابنتي بالصدفة، وكل ما يكتنفه الغموض في تفكيرها تكون نتائجه من ثم أكثر غموضاً . كنت أمتلك صورة مصغرة عن تفكير ابنتي ، وعن فهمها للعالم، توصلت إليه من خلال سماعي

المستمر لكلامها المبطن . كانت في سن تعتقد فيه أن أباها أكبر غبي في العالم ، وهي بالطبع لن تتورط ، وتمنح ثقتها إنساناً غبياً ، كما أن لها نفس الموقف من والدتها ، وإن كان بصورة مختلفة بعض الشيء ، لهذا لم تحاول إشراكها في تفكيرها ، وتحليلاتها، وأعتقد جازماً أنها لم تتحاور حول تلك المواضيع حتى مع زميلاتها في المدرسة ، وربما كان كلبنا "ريكي" المستمع والمتفهم الوحيد لمشاكلها. لهذا السبب أصبت بالدهشة حين رأيتها تتحدث باسترخاء مع "ليليان" التي تعرفت عليها في ظهيرة ذلك اليوم ، ولست واثقاً بالطبع من أنها وصفت لصديقتها الجديدة مجمل الغرائب التي تدور من حولها، ولكن حسب قراءتي للتعابير المرتسمة على وجه "ليليان" أثناء حوارهما، يمكنني الجزم أن "فيرونيك" كانت تشرح لها بعضاً من أسرارها الغامضة وما ينتج عنها من بلورة للحياة من حولها.

عادت "فيرونيك" إلى البيت في ذلك المساء فرحة ، وابتسامتها لا تسع وجهها ، ووصفت لنا شعورها بعد لقاء الفتاة الجديدة التي انتقلت إلى حينا ، قائلة : أخيراً تعرفت إلى الإنسانه التي طالما حلمت بلقائها والتعرف إليها ... فتاة تجايلني وتفهمني ، بسيطة لا تعرف الغرور . إنني ، وبالرغم من أني لمحت " ليليان" ذلك المساء عبر النافذة للمرة الأولى ، لكن حدسي كان يقول شيئاً أخر ، ونظرتي الأولى تقول عكس ما أخبرتنا به " فيرونيك" ، لقد جعلتني حركات "ليليان" ، وتعابير وجهها ، أشعر أنها تخفي غروراً ممزوجاً بسوء لا يمكنني وصفه ، وهذا الأمر بالطبع لم أتجرأ على قوله لابنتي ، وحسب خبرتي أعتقد أن الشكل الخارجي يمكن أن يخبرنا في بعض الأحيان عن

صفات الإنسان أكثر من حديثه،- بالطبع لا أجبر أحداً على الأخذ بتلك الفكرة - . لقد انبهرت زوجتي ، وانجرت هي الأخرى إلى صف ابنتي، وتفهمت حديثها ، ووصفها الرائع لصديقتها الجديدة ، ووافقتها الرأي دون نقاش ، وأنا من جهتي لم أجد أمامي سوى إسداء النصح لإبنتي ،طالباً منها بلطف عدم التسرع في إطلاق الأحكام، ورجوتها أن تمنح نفسها فرصة أطول للتعرف على صديقتها الجديدة قبل منحها ثقتها التامة خوفاً من تعرضها في المستقبل لخيبة أمل هي بغنى عنها. بحلقت ابنتي عينيها ، ورمتني بنظرة غضب حين سمعت كلامي ، وأنبتني زوجتي التي كانت تقف خلفها، وطلبت مني أن أخرس في الحال .

حين عدت في اليوم التالي إلى المنزل بعد يوم عمل شاق، عرفت في الحال أن "ليليان" في بيتنا من جروتها التي وجدتها بعد دخولي عتبة البيت مستلقية فوق شحاطتي . لم أتمكن من تمييز أصلها في الحال لأني وجدت لون وبرها كثير الشبه بلون وبر كلبنا ، وفي لغة السوق ، ومن الناحية العلمية التجارية يقال إنه لون " فلفل - ملح". استقبلني كلبنا "ريكي" بنباح قصير ، متقطع عبر فيه عن سعادته بلقائي ، ولكنه ما لبث تركني مفضلاً الجلوس بجانب جروة "ليليان" ومراقبتها .

كانت ابنتي مع" ليليان" في غرفتها ، وحين اقتربت من الباب ، ووضعت يدي على مسكته رغبة مني في فتحه ، والتعرف على "ليليان" عن قرب ، فلربما أجد مبرراً لتغيير رأيي فيها ، وجدته موصداً ، وسمعت في الحال صوت ابنتي "فيرونيك" ، وهي تطلب مني تركهما وشأنهما ، إلا أن "ليليان" على ما يبدو لم تأبه لكلام ابنتي ،

وفتحت الباب على الفور ، وانتصبت واقفة أمامي بين درفتيه، وكأنها أرادت أن تؤكد لي ، أنها الآمرة الناهية ، وسيدة القرار، ولا شأن لها بقرارات "فيرونيك" . مدت يدها ، وصافحتني ، وعرفتني بنفسها . لم استلطف طريقتها الرقيقة في واقع الأمر، ووجدتها سوقية تنم على غطرسة مبطنة بالرغم من ظاهرها الرقيق ، كما شممت من نظراتها في الحال رائحة تفوح بإغراء لا يمكن تجاهله ، ومع ذلك حاولت بقدر الإمكان المحافظة على توازني وشجاعتي .

لا يمكنني القول إنها تصرفت بفظاظة ، ولكن باختصار شديد يمكن التكهن من النظرة الأولى بأنها ربما ورثت تلك الحركات التي تشبه إلى حد بعيد حركات راقصات البار بعد منتصف الليل ، وهن واقفات بالقرب من العمود بانتظار الزبون . تنهدت وعدلت خصلة شعرها التي كانت تغطي قسماً من وجهها بحركة سريعة من رأسها ساعدت في الوقت ذاته على بروز ثد ييها . انحنت بعدها وأخذت تلاعب جروتها بطريقة مغرية كشفت فيها عن مفاتن ردفيها . لم أنظر في حياتي إلى أية صديقة من صديقات"فيرونيك" بتلك الجرأة ، لأني كنت على الدوام أعتبرهن مجرد أطفال . لذا تعمدت منذ تلك اللحظة عدم لفت انتباه "فيرونيك" إلى نظراتي المشبوهة . لقد كانت تلك الفتاة تمتلك في جسدها مواهب تجعلها تبدو أكبر سناً ، وأكثر خبرة ، ولهذا لم يراودني، ولو لحظة واحدة أي شعور بالذنب من نظراتي إلى طفلة في الخامسة عشرة من عمرها.

أتذكر اليوم الذي التقيت فيه "ليليان" للمرة الأولى ، وأتذكر الهلع الذي أصاب كلبي "ريكي" منها ، وهو عادة

يعبر عن موقفه من الناس بطريقتين لا ثالث لهما . الأولى بالدوران حول إنسان محبب إليه ، والبدء بإصدار أنات خافتة مصحوبة بنباح رقيق متقطع ، وقد يصل في التعبير عن سعادته إلى حدود القفز في بعض الأحيان . الطريقة الثانية على العكس تماماً ، وهي تعبر عن خوفه ، فتراه يبدأ بالدوران حول ذلك الإنسان الغريب ضمن قطر دائرة أكبر مثبتاً نظراته إلى وجهه، وكأنه يتوقع منه في كل لحظة هجوماً مباغتاً ، وهذا بالضبط ما فعله مع "الليليان"، لقد أحس بالخوف منها، وكم يؤسفني الآن أني لم أتصرف مثله ، و لم أتحل بحسه الدقيق في تمييز الناس .

لا أفهم حتى الآن ذلك السر الكامن وراء تأثير " ليليان" الجارف على سلوك ابنتي "فيرونيك" الذي جعلها تغير بشكل مفاجئ من أسلوب حياتها ، ومن طريقة تعاطيها معنا، فهاهي الآن تقص شعرها بالطريقة التي نصحتها فيها صديقتها الجديدة في الوقت الذي كان شعر " ليليان" يصل إلى خصرها، كما أنها تخلصت من مجموعة ثيابها الملونة ، وراحت ترتدي ثياباً شبيهة بثياب "ليليان" التي اختلط فيها الأسود بالأبيض ، و بدلت من طريقة تعاملها معنا . قبل أن تتعرف إلى "ليليان" كانت إنسانة فضولية تحشر أنفها في كل شيء – ولا تزال- ، وكانت بذيئة اللسان دون خجل ، وبدت لي تحت تأثير صديقتها الجديدة أكثر نضوجاً ، واستقلالية ، ولم تعد تعير أهمية من قريب أو بعيد لتصرفات أهلها ، وكأنها لا ترتبط معهما بشيء. أصبحت إنسانة متحفظة ، وأهم ما في الأمر عنيدة لا تتراجع.

وهل كل ذلك بسبب تأثير "ليليان؟ لا أظن ذلك .

دأبت "فيرونيك" على قضاء فترة ما بعد الظهيرة برفقة " ليليان" وكانتا في أكثر الأحيان تتنزهان في الغابة القريبة من بيتنا بين أشجار الصنوبر ، منسجمتين في أحاديث حميمية لا نهاية لها، بينما كان كلباهما يلعبان من حولهما بصخب ،وفرح ، فتارة يقفز أحدهما على الآخر ، وحيناً يهرب أحدهما أمام الآخر ، ويعودان ليلعبا من جديد حتى أن الأمر وصل ب" ريكي" إلى حد السماح لجروة "ليليان" أن تعضه من أذنه وساقه دون أن يرد عليها بالمثل .

سقط الثلج بكثافة في تلك السنة قبل أعياد الميلاد ، وبقي متماسكاً لفترة طويلة ، وأتذكر أن "فيرونيك" خرجت مع " ليليان" في نزهة طويلة ليلة عيد الميلاد . كنت أراقبهما من خلف ستارة غرفة النوم ورأيت فرح كلبيهما، وهما يقفزان أحدهما على الآخر ، والثلج يتطاير من حولهما في كل الاتجاهات ، حاجباً عني رؤيتهما . كانت "فيرونيك" تقف ملتصقة ب "ليليان" تحت شجرة صنوبر تدلى من أحد أغصانها قنديل متجمد . فاجأني منظرهما ، وهما تمسكان به ، و تلعقانه بشهية ، وكأنهما تلعقان "الآيس كريم" ، وعلى حد علمي لم تكن ابنتي "فيرونيك" لترتكب مثل هذه الحماقات ، لولا أنها تعلمتها من صديقتها التي كنت شبه متأكد من أنها لم تفوت على نفسها فرصة واحدة ، وأنها مغرمة بتلك القناديل ، ومثيلاتها ، وأثبتت لي بتصرفها هذا أنها فتاة سيئة منذ طفولتها. إلا أني مع ذلك كنت في عقلي الباطن شديد الرغبة في التعرف إليها عن قرب لكشف حدود سوئها .

حانت الفرصة بعد ذلك بوقت قصير ، حين أصيبت ابنتي " فيرونيك" بسبب لعقها تلك القناديل الباردة بالتهاب قيحي في لوزتيها، لزمت على أثره الفراش ، وهذا جعلني أضطلع بمهمة الخروج مع الكلب كل يوم .

كانت أمنيتي معرفة " ليليان " عن قرب ، ولكني في نفس الوقت حرصت على ألا ينتبه أحد في الجوار إلى سلوكي ، لهذا السبب خرجت في اليوم الأول ، والثاني مع كلبنا في وقت أبكر من خروج "ليليان " مع جروتها ، واخترت لسيري طريقاً يختلف عن طريقها ..

التقينا في اليوم الثالث ، وهنا لا يمكن القول بشكل دقيق أننا التقينا، لأن "ليليان " أخبرتني أنها كانت تتوقع لقائي ... كانت تبدو بمظهر رائع لا سيما حين كان الثلج يتساقط على شعرها الطويل ، ويتداخل مع البخار الخارج من فمها في جو ضبابي شاعري ... لقد شدني منظرها . تحدثنا بشكل أساسي عن الكلاب، وخبرت منها أن جروتها تنحدر من سلالة عريقة وهي سليلة الذئب الأيرلندي ، وحتى ذلك اليوم لم يكن حجم ذئبتها الايرلندية قد وصل إلى نصف حجم كلبي المشورب!، كما أكدت لي ، وهي تضحك كطفلة صغيرة ، أن جروتها تتبع نظاماً غذائياً خاصاً وهذا يجعل طولها خلال شهرين يصل إلى ثمانين سنتمتراً. ذكرتها عند الوداع ، أنها نسيت أن تسألني عن " فيرونيك" وعن مرضها، أجابتني : إن مرضها على الأكثر ليس بالخطير ، وإلا كنت قد أخبرتها بنفسي . ابتسمت بدلع ، وهي تغلق جفنيها، و تحركت بكل وسامة عائدة إلى بيتها . فكرت فيها بتركيز كبير في ذلك المساء ، وهذا جعلني أشتاق إلى ما

كان منسياً في جسدي منذ زمن طويل ، وبعد طول نقاش أقنعت زوجتي بممارسة الجنس معي .

بقيت ابنتي " فيرونيك" طريحة الفراش لأسبوع كامل، كنت خلاله ألتقي "ليليان " كل يوم إلى أن أشارت عليّ في أحد الأيام أن أرافقها إلى البحيرة الموجودة في وسط الغابة القريبة من بيتنا التي كان الناس نادراً ما يزورونها ، وأنا من جهتي لم أزرها من قبل ، كما أن ابنتي "فيرونيك" لم تزرها ولم يخطر ببالي في يوم من الأيام أننا نسكن بالقرب من بحيرة، في الوقت الذي كانت "ليليان" التي انتقلت للسكن في حينا قبل عدة أسابيع تعرف المنطقة بكاملها أفضل منا جميعاً .

وقفنا في وسط العاصفة ممسكين أحدنا بالآخر ، وكان رأس "ليليان" طوال الوقت لا يفارق صدري، ضحكنا من منظر كلبينا اللذين كانا يتشاقيان ، وهما يلعبان وكانت أكثر المناظر إثارة رؤيتهما وهما ينزلقان فوق سطح البحيرة المتجمد ، و يميلان على جنبيهما موشكين على السقوط مع كل تغير في مسار الثلج الكثيف المتساقط، وكانت جروة "ليليان" تنقلب أثناء انزلاقها على جنبها ، ولكنها تعود لتنتصب من جديد ، وتلحق ب"ريكي" ، محاولة الإمساك بطرفه ، وعضه ، ولكن حركاتها المتقلقلة لم تكن تسمح لها بتنفيذ رغبتها، ومع ذلك لاحظت حين عدت إلى البيت أنها تمكنت منه في عدة أماكن، وجعلته ينزف .

يعتبر "ريكي" كلب صيد محترف، مثله كمثل جميع الكلاب المشوربة ، ويمكن التأكد من غريزته تلك بسهولة، وكان يكفي أن أرمي أمامه غصن شجرة لأجده ينقض

عليه بسرعة البرق ، ويعيده إلي . حاولت جروة" ليليان" تقليده ، لكنها بدلاً من الإمساك بالغصن أمسكت بساقه ، والغريب في الأمر أن "ريكي " لم يتجاوب مع "ليليان" حين رمت أمامه أحد الأغصان ، وكل ذلك لأن خوفه منها كان لا يزال حاضراً ، ولكي ترضي غرورها، رجتني أن أرمي له كرة من الثلج لخداعه . حين وقعت الكرة في الثلج وبدأ"ريكي" يبحث عنها ، ولم يجدها ، عاد ، وأخذ ينبح في وجهي ، وينبهني على عدم خداعه في المستقبل. أما "ليليان" فقد وجدت في تلك المزحة السخيفة إرضاء لغرورها .

أخبرتني " ليليان" في أحد الأيام أن والديها لا يتبادلان كلمة واحدة في البيت ، ولكنهما يظهران على عكس ذلك في حضرة معارفهما ، وما أثار إعجابي كان تقييمها لهذا الأمر.

لقد نشأت في عائلة أمضت حياتها متسلحة بكرهها الشديد للزيف، والتصنع ، ومع ذلك جاهرت" ليليان" أمامي بإعجابها الشديد بالناس الذين يتقنون فن التصنع ، و التلاعب، ويمثلون في الحياة أدواراً مختلفة ... أجبتها أنني لا أفهم قصدها ، وهنا بدأت بشرح فكرتها ، واختارتني نموذجاً للتوضيح. سألتني عن تقييم زملائي لي في العمل. أجبتها أنني أريد الظهور بمظهر الرجل المرح المتفاني في مساعدة الناس . سألتني:هل تتصرف بهذه الطريقة مع زوجتك ؟ . أجبتها بالنفي . هنا ضحكنا معاً . أخبرتني "ليليان" بعد ذلك أنها تريد أن تلعب معي لعبة معاكسة للعبة والديها ، ومعنى ذلك أننا بين الناس سنتصرف كشخصين

غريبين، وحين نلتقي سيحدث العكس . حين ودعتها في ذلك اليوم تحاشيت الوقوع في خطيئة تقبيلها.

لم أسمح بحدوث حالة من التقارب الجارف بيننا خلال لقاءاتنا اللاحقة، وذلك على الرغم من أني منذ الصباح كنت أفكر فيها ، و أتلهف لرؤيتها، ولكني كنت أشعر في الوقت ذاته بنوع من القرف من تصرفاتي الصبيانية، ولطالما ذكرت نفسي بأني تورطت في علاقة غير متكافئة مع فتاة في الخامسة عشرة من عمرها (بالضبط خمسة عشر عاماً ، وثلاثة شهور كما نبهتني)، وأكثر من ذلك كانت صديقة ابنتي، وتسكن في شارعنا . وكرد فعل على شعوري بالذنب أشار عليّ تفكيري الناضج أن أخرج في نزهتي اليومية ساعتين قبل الموعد المحدد ، وأن أتبع طريقاً معاكساً لطريقها لأتحاشى لقاءها ، ولكني مع ذلك لم أصغ لنداء العقل ، وأصبحت فجأة ، وبدون مقدمات أسير شعور غامض ، لا يمكنني تسميته بالحب ، لأنه كان موصوماً بالخطأ منذ بدايته ، وهذا ما جعلني أركض خلف "ليليان"مثل الجرو ، ولكن الذي هوّن عليّ الأمر ، وجعلني أستمر، كان ملاحظتي لإشارتين أو ثلاث إشارات تدل على تعلقها بي . من طرفي لم يكن الأمر محض رغبة ، ولكنها كانت رفضاً لفكرة الاعتراف بالخطأ...

أما بالنسبة لما كانت تشعر به " ليليان" فهذا أمر لا أجد الجرأة على وصفه ، لأنني أحسست منذ البداية ، أن تلك الفتاة تلعب دورها بإتقان وحرفية متناهيين في تلك المسرحية . كنت أنتظر بفارغ الصبر اللحظة التي ستتعافى فيها " فيرونيك" لتخرج برفقة الكلب بدلاً عني ،

وتخلصني من هذه الورطة ، وربما لهذا السبب سمحت لقلبي ، ولأوهامي متابعة اللعب في تلك المسرحية مع "ليليان". كنت متأكداً إن ابنتي ستمسك في أقرب وقت رسن "ريكي" ، وستضع حداً لتلك اللعبة .

"الرسن" كلمة غير فصيحة ، ويجب أن نقول "الموجَه"

حين عادت " فيرونيك" إلى مدرستها بعد أن تعافت من المرض كان عليها الخروج مع الكلب كما جرت العادة ، لهذا آثرت البقاء عن قصد في العمل لفترة أطول في ذلك اليوم محاولاً إنجاز بعض التراكمات التي حدثت بسبب اضطراب تفكيري .

وصلت البيت متأخراً في المساء ، وفي المعبر المؤدي إلى البيت سمعت نحيب ابنتي "فيرونيك " وصوت زوجتي وهي تحاول تهدئتها . كانت ابنتي تشرح أمراً لم أفهمه ولكني سمعتها تذكر اسم "ليليان" وفي الحال خطر ببالي أن" ليليان" ربما أخبرتها عن علاقتنا . لم أكن خائفاً من غضب زوجتي ، كونها اعترفت لي منذ زمن ، بأنني بالنسبة إليها "إنسان ميت" لذا قررت من أجل خاطر ابنتي إنكار كل شيء يتعلق بحديث" ليليان" عني ، علماً أنه من الناحية القانونية لم يحدث بيننا أي شيء يستحق غضب ابنتي. إلا أنني مع ذلك شعرت بالحسرة لأن كل شيء سينتهي بعد هذا اليوم بيني وبين "ليليان". وجدت نفسي محبطاً، لأن القضية التي كنت أفكر فيها، وكنت أظن أنها ستنتهي بجريمة ، سوف تفصل بمشهد مخجل واحد يكتنفه الكذب ، وسيتوج بحلف الأيمان.

كنت مخطئاً في تقديري لأن "الليليان" لم تخبر ابنتي أي شيء يتعلق بعلاقتنا ، وكل ما في الأمر أن "فيرونيك" تحاشت الحديث معها ، لأنها خبرت في ذلك الصباح من زميلتها في غرفة الملابس أمراً أغضبها. بدأت ابنتي الحديث ، وساعدتها زوجتي ، وكلتاهما كانتا تذرفان الدموع بسخاء ، ولكنهما لم تخبراني بالتفصيل عما حدث ، لأنهما كانتا تشعران إن قسماً من الحديث يجب أن يبقى سراً نسائياً ، ولكني فهمت من كلام ابنتي أن "الليليان" قد نكصت بوعدها لابنتي ، وأخبرت أحد زملائها عن رغبتها أي رغبة " فيرونيك" في إنشاء علاقة معه ، مما جعل هذا الشاب يسخر من تلك الفكرة ، ويهزأ من ابنتي "فيرونيك" على مسمع ، ومرأى من زملائها . كان قسماً مما ذكرته" ليليان" لذلك الشاب صحيحاً، وكان من المفروض أن يبقى سراً بين الفتاتين، أما القسم الآخر من الحديث فقد كان من اختراع "الليليان"، حسب رواية "فيرونيك". لقد كانت ابنتي المسكينة تتعذب ، و في منتهى التعاسة لأنها في يوم واحد فقدت صديقتها، والشاب الذي كانت مغرمة به.

كانت ابنتي تصرخ ، وهي تبكي قائلة بأنها لا تريد رؤية وجه "الليليان" بعد اليوم . حاولت جاهداً أن أهدىءمن ثورتها ، وشرحت لها أن ذلك غير ممكن ، وشبه مستحيل لاسيما أن " ليليان" تسكن في حينا، وبالقرب من بيتنا ، وسبب كلامي هذا ثورة غضب لم أتوقعها من زوجتي التي شاركت هي الأخرى بالحديث وصرخت في وجهي قائلة:
لا يهم ، وإن رأتها فليس من الضروري أن تتحدث معها ، وأضافت بلهجة آمرة أن عليّ الخروج مع الكلب كل يوم

بدلاً من "فيرونيك" ، لأنني أنا من اشتراه ، ولهذا فمن واجبي العناية به.

خرجت مع "ريكي" في اليوم التالي ، واتجهت مباشرة إلى المكان الذي تعودت فيه لقاء "ليليان" بالقرب من البحيرة ، ولكني لم أجدها . انتابني على الفور شعور بالحنين إليها و زاد من تعاستي منظر الثلج الذي بدأ بالذوبان مخلفاً وراءه تربة طينية أكرهها لأنها تشعرني بالكآبة. كان عليّ أن أمسك "ريكي" بقوة من رسنه ومنعه من الركض واللعب فوق جليد البحيرة الذي أصبح هشاً ، وبدأ يتكسر في العديد من المواقع .

كنت أرافق" ريكي" كل يوم إلى هذا المكان كما جرت العادة، وكنت أتخيل "ليليان" ملتصقة بجسمي ، وأتذكر كلماتها، كما أحسست أن "ريكي" هو الآخر كان يتذكر جروتها الصغيرة، ويحن إليها ، وعرفت ذلك حين رفض الركض وراء الغنيمة لا بل إنه تركني وحدي، وأخذ يتمشى ببطء حول البحيرة ، و يتلفت طوال الوقت باحثاً عن صديقته الغائبة.

بعد أسبوع ، وأثناء النزهة المعتادة ، بدأ "ريكي " فجأة بالنباح ، وفي اللحظة ذاتها أحسست بلمسات أنامل رقيقة تداعب عيناي من الخلف رافقها صوت صبية تسألني أن أخمن من تكون . أمسكت الأنامل الرقيقة ، وسحبتها إلى فمي وقبلتها، ثم استدرت لأجد "ليليان"أمامي بابتسامتها العريضة ، وبدون كلام استسلمنا لعناق طويل ، انتهى بقبلات لا حصر لها ، وفي غمرة التحامنا لمحت كلبتها الصغيرة تراقبنا، وهي تلهث ، وكأنها تعد نفسها لهجوم. بهرني منظرها ، كما أدهشني ذلك التبدل السريع الذي طرأ

على حجمها خلال فترة غيابها ، لأنـي كنت لا أزال احتفظ فـي ذاكرتـي بشكلها الصغير حين كانت " ليليان "تحملها تحت إبطها، ولدهشتي وجدت أمامي جروة يصل حجمها إلى حجم كلبي المشورب ، وربما يتجاوزه .

لقد تغيبت "ليليـان" عن الحضور فـي الأيـام السـابقة لأنها كانت مريضة بنفس المرض الذي أقعد ابنتي أسبوعاً في الفراش.

سألتها عما حصل بينها وبين ابنتـي ، وعن سبب سوء التفاهم . ثبتت عينيها فـي عينـي ، وقالت ، إنها فعلت ذلك عن قصد، متعمدة إغاظـة "فيرونيك" لجعلها تتوقف عن الخروج مع الكلب ، وبذلك سأخرج بدلاً عنها . أعجبتنـي صراحتها ، ولكنـي فـي الوقت ذاتـه رغبت لـو أنها ألمحت عـن أسـفها لإزعـاج "فيرونيـك" ، والتسـبب فـي جـرح مشاعرها، ولكنها لم تفعل ، ولعبت أمام "فيرونيك" دوراً مختلفاً.

حين تبدأ علاقة بين شخصين مختلفين ، بين موظف فـي الواحد والأربعين ، وطالبـة مدرسـة متوسطة فـي الخامسـة عشرة مـن عمرهـا ، فمـن البديهي أن يدخل أحدهما فـي عالم الآخر ، وفي حالتنا كان الأمر مختلفاً بعض الشـيء ، لأن "ليليان" لم تكن تفكر مطلقاً كما تفكر فتاة في سنها ، بل كان تفكيرها في بعض الأحيان ينم علـى خبـرة ربمـا تفوق خبرتـي بمـرات . كانـت تعتقد أن الغدر بـالآخرين وتلفيق الاتهامـات أمـر طبيعـي للوصـول إلـى الهدف، وهذا شـيء يمكنني توقعه من متقاعدة أنانية ، محبطـة تنظـر إلـى العـالم بسوداوية ، حيث لاشيء يربطها بالرومانس ، وربما كانت تلعب دور العاشقة الأنانيـة حين تكـون برفقتـي، وإن كـان

ذلك صحيحاً فإنه يدل على لعبها الدور بمنتهى الحرفية ، والإتقان ....!.
وأنا في المقابل اندمجت بشكل كبير في لعب دور المراهق المجنون، حتى إن الأمر وصل بي لرسم قلب كبير في الثلج كتبت اسمها في وسطه ، وتبولت عليه .

هذا ليس خيال مراهق عصري عاشق

كانت حدود شهوتنا الجنسية ، وضبط إيقاعها بالغ التأثر بدوري في تلك العلاقة، لأني أنا من كان يوجه تلك الرغبة . كنا نقف ملتصقين ، و كانت قبلاتنا مفعمة بالحرارة، والدفء ، ولكننا عند سماع أي حركة، أو صوت من حولنا يترك أحدنا الآخر ، ونتصرف كأننا التقينا مصادفة ... ، وبالرغم من حرصنا الشديد ، إلا أن الناس لاحظوا تكرار لقاءاتنا ، وفي أحد الأيام ، وفي اللحظة التي دخلت فيها البيت فاجأتني "فيرونيك" ببكائها وصراخها ، في وجهي، آخذة عليّ خروجي مع "الليليان" . سألتها غير متأكد .. ماذا تقصدين ....، كررت أقوالها مرة أخرى ، وأضافت : إنك تتنزه معها حين ترافق الكلب ، ولقد لمحتك زميلاتي . لم تتطرق لعلاقتي مع "الليليان"، وبقي الأمر ضمن حدود خروجي مع الكلب وهذا أشعرني بالراحة .
تأكدت على الفور أن ابنتي لا تعرف شيئاً عن خفايا لقاءاتنا، كما أنها لم تتوقع على الأكثر حدوث شيء بيننا ، وهذا جعلني في وضع يسمح بانتقالي من الدفاع إلى الهجوم. قلت لها: إن تضارب أفكاركما الصبيانية لا يعنيني بشيء، وكل ما في الأمر أن " ريكي" يتسلى باللعب مع

جـروة" ليليـان"، وحـين نلتقـي ، فـإني أتركـه يـنفس عـن رغباته، كما أني لست في وضع يسمح لي بتعكير الأجواء، ولمـاذا أفعـل؟.... وهـل أفعـل مـن أجـل طفلتـين مـراهقتين تشاجرتا بسبب أمور لا يمكننـي وصـفها سـوى بالسـخيفة . شـعرت ابنتـي بالإهانـة، لـذا تركتنـي وأغلقـت بـاب غرفتهـا بعصـبية . لـم تكـن تتحمـل إهانـة مراهقتهـا . شـعرت بعـدها بتأنيب ضمير ، وعرفت أني تصرفت بقسوة لا مبرر لهـا ، لذا خجلت من تصرفي ، وانتابني شعور بـأنني تخليت عـن ابنتـي "فيرونيك" مقابل علاقتـي مـع "ليليـان".. وهذا أمـر لايمكنني تقبله .

أما علاقتي بزوجتي فقد كانت منذ أبد بعيد فـي منتهـى البرودة، وكنت قد شككت قبل خمسة أعوام بعلاقـة تربطهـا مع أحد زملائها في العمل ، ولأن موضوع الخيانة الزوجية لم يكن يهمني من قريب أو بعيد ، لذا فإني لم أحاول البحث عن الحقيقة لأني تخليت عن الروحانيات منذ زمن بعيد ، وربما حدث ذلك قبل أن تفكر هي بالتخلي عني ، لكنني لم أكـن حيادياً إزاء ابنتـي ، وكنـت أرغـب أن تكـون علاقتـي معها ممتازة .

كانـت السـاعة أو السـاعتان اللتـان أقضـيهما مـع " ليليان"من أسعد أوقـات يـومي علـى الإطـلاق . كنـت فـي عملـي أتفاجـأ منـذ الصـباح بـأني لا أفكـر سـوى فيهـا ، وبشعرها الذي أدفن فيه وجهي كل يوم ، و شفتيها الرقيقتين اللتين لا أرتوي من تقبيلهما، وكنت لا أكـاد أنهـي واجبـاتي الوظيفية وأعود إلى البيت حتـى أجد نفسـي أستعد للخـروج مع "ريكـي" لملاقاتها ، وكل ذلك لأنني كنت معها بروحـي طوال الوقت داخل العمل وخارجه وأفعل ذلك بـالرغم من

ملاحظات زوجتي العابرة: أخبر" ليليان" ، أن الكلب العجوز لا يمكن تدريبه. كانت تلك الملاحظات تزيد من تحريضي واشتياقي ل"ليليان" . على الأقل لم أكن بحاجة إلى التصنع أمامها ويمكن القول إن علاقتي بزوجتي قد تحسنت بشكل من الأشكال ، ورحت أعتبرها بمنزلة زميل يسكن معي تحت سقف واحد ، كما أني لم أتوقع منها أكثر من ذلك ، وقد توقفت منذ ذلك الوقت عن إضرام نار المشاكسات بيننا ، ولم أعد أرغب في إهانتها .

الأمر كان أسوأ مع ابنتي "فيرونيك" التي أشعرتني بأني غدرت بها ، وأهنتها بسبب انسجامي مع صديقتها السابقة، ولكن ذلك الشعور لم يردعني . ربما أكون أخطأت ، وكان عليّ أن التزم باقتراح " ليليان"، وآخذ علاقتنا على أنها إحدى الأدوار التي يمكن أن يلعبها الإنسان بالتوازي مع غيرها من الأدوار، بمعنى أن أبقى أباً فاشلاً ، وزوجاً شكلياً ، وموظفاً متفانياً. لم يكن من الصواب أن ألقي جانباً بكل تلك الأدوار من أجل دور واحد في لعبة لا أعرف نتائجها . عليّ فهم علاقتي مع "ليليان" كدور في مسرحية ، لأنها كانت هي نفسها تفكر بتلك الطريقة.

أسست مع " ليليان" عالماً مغلقاً لا يدخله أحد سوانا، حتى إن "ليليان" توقفت عن ذكر" فيرونيك" التي لم تكن تهمها في الأصل من قريب أو بعيد وركزت على المواضيع المتعلقة بجروتها التي كانت عندها أكثر المواضيع إثارة ، وأكدت لي في إحدى نزهاتنا أنه بفضل التغذية المعدلة التي تشتريها ستصبح الجروة الإيرلندية خلال عشرة أشهر بحجم كلب بالغ . كنت أعرف أن هذا

النوع من الكلاب مهيأ بشكل كبير لزيادة الحجم، ولكن تفسيراتها بدت لي زائدة عن حدودها ، ومع ذلك فإن مقاييس كلبها أقنعتني في النهاية بصحة كلامها . لقد أصبح ل "ريكي" منذ الآن صديقة من حجمه ، ولكن لياقتها لا يمكن مقارنتها بلياقته . لقد اضطررت عدة مرات إلى إبعادها عن ساق" ريكي" لمنعها من عضه.

كانت " ليليان"تخبرني بكثير من الفرح عما تخطط لفعله مع الجروة ، وأخبرتني في أحد الأيام أنها تريد تدريبها لتصبح مقاتلة من الدرجة الأولى ، وبدت في منتهى السذاجة حين شرحت لي كيف كانت تلك الكلاب الأيرلندية ذات الأصول الذئبويه في القرن السابع عشر تقوم بحماية المزارع الإنكليزية من خطر الذئاب ، وبعد ذلك بوقت طويل تحولت لتصبح لعباً بشرية كثيفة الشعر وباعتقادها أن ذلك لم يحدث بسبب انحطاط ذلك الصنف ، وتدني مستوى غريزته القتالية ، بل بسبب النقص الحاصل في تدريبه . كانت رغبتها بامتلاك كلب مدرب مقاتل تفوق كل رغباتها، ولهذا السبب بدت لي مضحكة وساذجة وسألتها عن الذين سيقاتلهم كلبها، فوجدتها قد اتخذت القرار بجعله يقاتل أشرس أنواع الكلاب ضراوة ، وذكرت لي أسمائهم ، وقالت " بيتبولا ، و روتفيلر " وهذا الجواب جعلني أضحك عن حق وحقيقة ، وذلك بالرغم من التاريخ الطويل لهذا النوع من الكلاب في صراعه مع الذئاب ، وتمزيقها، لكنني لم أتمكن من تصور تلك الجروة الملطخة بالطين تقاتل حتى الموت من أجل البقاء. إن ضحكي بالطبع أغضب " ليليان" .

مارسنا الجنس للمرة الأولى في الثالث عشر من نيسان ، وهذا تاريخ لا يمكنني نسيانه . كانت الكواليس المحيطة بفعلتنا في منتهى الكمال: شمس ربيعية، وعصافير تغرد ، و تتراقص من حولنا منتقلة من غصن إلى آخر ، وأرض مفروشة ببساط رائع من الزهور البرية . كنت أرمي الأغصان في البحيرة لأشجع " ريكي" على النزول في الماء ، ولكني وجدته يطاوعني مكرهاً . وفي اللحظة التي وطئت فيها قدماه ماء البحيرة ، ولحقت به جروة " ليليان" بدأ ينبح بشدة وركض خارجاً من الماء ، لحقت به جروة "ليليان" ، ووقفا بالقرب من جذع شجرة قريبة. صرخت ليليان ، وقالت لي : إنهما يركضان خلف قطة. نهضت على الفور، ولحقت بهما ، وأخذت أنادي على كلبي الذي تجاوب معي في الحال وعاد مسرعاً ليجلس بالقرب مني ، لكن جروة "ليليان" على عكسه أرادت امتحان مهاراتها القتالية وهذا بالضبط ما أرادته "ليليان" وسعدت من رؤيته . وقفت جروتها تحت الشجرة ، وأخذت تنبح ، وهي تقفز محاولة الوصول إلى القطة الخائفة الممسكة بأحد الأغصان ، ولحسن الحظ إن هذا النوع من الكلاب لا يكون عادة من أبطال القفز العالي .

إلا أن أكثر ما فاجأني ، وأثار دهشتي، كان تصرف " ليليان" الغريب ، حين وجدتها تمسك بطرف الغصن ، وتهزه بعصبية، رغبة منها في إخافة القطة ، وإجبارها على النزول. بقيت في مكاني أراقب ما يحدث. كان الغصن الذي وقفت عليه القطة قوياً، لهذا لم تتمكن ليليان من السيطرة عليه، وتحريكه بالطريقة التي أرادتها ، لذا لجأت لكسر غصن آخر رفيع من الشجرة ذاتها لاستخدامه

في ضرب القطة وإخافتها ، وفي خضم انهماكها بشد الغصن، صرخت لأنها جرحت إصبعها،ألا أن ذلك لم يثنها عن الاستمرار في محاولتها، إشباعاً لشهوتها. تمكنت في النهاية من قلع الغصن واستخدمته دون وعي في ضرب الغصن الذي وقفت عليه القطة الخائفة ، التي كانت تدافع عن نفسها بإطلاق نفخات سريعة ، وبالرغم من أن "ليليان" لم تتمكن من الوصول إليها ، إلا أن القطة المسكينة فقدت توازنها وسقطت لتقع فريسة أنياب جروة "ليليان" التي انقضت عليها في الحال وعضتها من ظهرها ولأن إغلاق فكيها لم يكن محكماً تمكنت القطة من الانزلاق والهرب ، ولكن الجروة لم تستسلم وأخذت تركض من خلفها ولم تتوقف عن ملاحقتها بالرغم من نداءات "ليليان" المتكررة ، وأوامرها الواضحة.

بقي كلبي "ريكي" يئن واقفاً في مكانه طوال الوقت محافظاً على حالة التأهب ، وعرفت ذلك من وضعية وطريقة وقوفه ....حيث برزت عظام كتفه وانتصبت أذناه. كان يراقب ما يجري دون أي تفكير في المشاركة أو الاقتراب من الشجرة لمعرفته أن ما يجري أمامه لا علاقة له ببرنامج تدريبه، و مع ذلك لاحت في عيونه نظرات مشبعة بالحيرة . تذكرت ابنتي " فيرونيك" في الحال ، وفكرت في ردة فعلها ، لو عرفت أني وقفت وقفة المتفرج في هذه المسرحية ، ولم أتدخل في الحال لإيقاف ذلك الفعل الشائن لجروة " ليليان". حمدت ربي لأنها لم تكن موجودة لكي لا أفقد ما تبقى من احترامها . كنت أنا أيضاً في حالة من الحيرة.

عادت الجروة خائبة بعد لحظات لتجد حضن" ليليان" في انتظارها ، حملتها على الفور وداعبتها، وهدأت من روعها ممررة أنفها ليلامس فمها .

حين وقفت "ليليان" أمامي في النهاية مدت لي إصبعها، وتركتني أقيم الجرح الذي أصابها. أخذته بين شفتي ، ومصصت الدم العالق فيه، والغريب في الأمر أني وجدت مذاقه حلواً، أو هكذا خيل لي .

برغبة كبيرة وشهوة عارمة فتشت عن آثار دم أخرى هاربة في تقاطيع جسدها ، و تحت قميصها. وشوشتني ، وهي تمسك رأسي قائلة أنها تحمل لي هدية في جيب بنطالها الخلفي . دسست يدي ، وأخرجت واقياً ذكرياً مغلفاً ومن يدري كم من الوقت حملته في جيبها ؟ وهل من العدل القول هنا إنني انا من غرر بها ، أو مارس عليها نوعاً من الضغط ؟ إنها هي من جهز السيناريو، و قبل ذلك الواقي الضروري ، لأحد فصول مسرحيتنا.

دخلنا الغابة برفقة كلبينا اللذين كانا يرقصان من حولنا غير عارفين فيما إذا كنت أداعب ليليان ،أو أؤذيها ، ولكني لم أؤذها لأنها لم تكن عذراء كما توهمت ، وأكدت لي بعد مدة أنها لم تمارس الجنس مع أحد غيري ، وأنها فقدت عذريتها بسبب سدادة قطن كانت قد دستها في ..... أثناء السباحة . لا يمكنني الحكم ، ولا أعرف إن كان هذا ممكناً من الناحية التكنيكية.

لم يطل معنا الأمر في المرة الأولى، لأنها أفقدتني في ثوان كل ما وفرته ، وخزنته من شهوة بفضل حركات جسدها ، ولمسات يديها ، ولكني وجدت في نفسي الرغبة ، والاستعداد لمضاجعتها مرة ثانية في الحال ، وهذا الأمر

فاجأني ، وأفرحني في الوقت ذاته لاسيما أنه لم يحدث لي مع زوجتي منذ ما يقارب العشر سنوات ، إن لم يكن أكثر . هنا كانت اللعبة مختلفة تماماً . توقف الكلبان عن الهيجان ، وجلسا يراقبان مغامرتنا بلذة . ظهرنا في تلك اللحظة كعاشقين حقيقيين ، بالرغم من أننا كنا حتى ذلك الوقت نلعب أمام الناس لعبة" لقاء المصادفة" . حين عدت إلى البيت سألتني زوجتي بحضور "فيرونيك"، إن كنت قد تأكدت من وثيقة ميلاد " ليليان "، لكي لا أتورط في ممارسة المنكر مع طفلة ، وهذا سيعرضني للمسائلة وربما إلى السجن . كنت في تلك اللحظة في حالة من النشوة جعلتني أمتنع عن الرد ، لكي لا أدخل معها في جدل عقيم ، ولكن عقلي الباطن أخبرني أن إنساناً مثلي لا يحق له مثل هذه السعادة ، وتأكدت في الحال أنها سعادة مؤقتة عابرة ، وآيلة إلى نهايتها.

جاءتني فرصة ذهبية لم أكن أتوقعها ، وحدث ذلك بعد إصابة رئيسي المباشر بكسر في عموده الفقري أثناء عودته من العمل في طريقه إلى البيت ، وهذا ما أوجب لزومه الفراش لمدة طويلة . اقترحني في الحال مدير الشركة لتسلم مكانه ، ولكنه عقب قائلاً :عليك أن تسوي حياتك الخاصة قبل استلامك المنصب ، لأنك بوصفك رئيس قسم في الشركة ستكون ممثلاً لها ، وربما ستكون مضطراً إلى التحدث في وسائل الإعلام ، وبدلاً من الاستجابة للعقل ، واقتناص الفرصة، رفضتها دون تردد ، لأني وجدت فيها انشغالاً عن "الليليان" ، وآثرت الاستجابة لعواطفي ، والاسترسال في أحلامي . أخبرت "الليليان" في ذلك اليوم عن رغبتي في العيش معها، وشرحت لها أن

ذلك سيكون ممكناً لو انتقلنا للعيش في مدينة أخرى ، أوفي بلد آخر ، حيث تسمح القوانين بعدم تدخل الأهل في رغبة البنت الصغيرة إن أرادت العيش مع إنسان تحبه بالرغم من فارق السن . نظرت ليليان في وجهي ، وابتسمت ، وقرأت في ابتسامتها الساخرة رفضاً يدل على أنها لا تريد ربط مستقبلها بإنسان مثلي وفي سني، لهذا تغاضيت عن طلبي، ولم أكرر الفكرة من جديد ، وتابعت لعب دور المراهق العاشق في تلك المسرحية.

بدأت ليليان مع مرور الوقت تغوص أكثر فأكثر في لعب دور الصبية -الشريرة ، ذات النزعة العدائية ، والكارهة للناس ، وللعالم ، وكان الحديث عن وحشية كلبتها، ونزعتها القتالية يأخذ الحيز الأكبر من أحاديثها ، كما أنها وجدته أكثر الأحاديث ملاءمة لمزاجها ، وكانت طوال الوقت تستعين بأدلة وبراهين تؤكد صواب رؤيتها . لم أتمكن من فهمها أو مناقشة منطقها . تحدثت مثلاً عن المغزى الاجتماعي والسيكولوجي للصيد في الأوقات الغابرة . المطاردة - بالطبع بوساطة الكلاب - ومدلولاته النفسية في الترويح ، والتنفيس ، وفي تفريغ عدوانية النفس البشرية . ومن هذا المنطلق هي بحاجة إلى جروتها المقاتلة، كما أنها لم تخف شعورها بأن كلبتها تغذيها بالعاطفة السلبية .

بدأت تظهر على كلبة "ليليان" بعض التشوهات الناتجة عن نموها السريع . أصبحت مؤخرتها بالمقارنة مع رأسها وصدرها أكثر بروزاً ، كما أظهرت مفاصلها الكبيرة نمواً واضحاً ، ولكنها ، وبالرغم من النمو السريع في جسمها لم يكن شكل وبر جلدها يشير إلى بلوغها ، إضافة إلى ذلك

لم تكن متناسبة في شكلها الخارجي مع إمكاناتها الفردية ، بكل بساطة جسم بلا عقل . انشغلت " ليليان" في تدريبها ، حتى إنها دربتها على إسدال أذنيها، وهو ما أعتبره إرهاقاً لا معنى له. وبما أن الأوامر كانت تصدر عن " ليليان" ، فإنها لم تزعجني ، لأنني كنت أيضاً أطيع أوامرها .

طلبت مني في أحد الأيام أن أولي أهمية أكبر لتربية ابنتي "فيرونيك". الأمر لم يكن بهذا الشكل ، لأنها في حقيقة الأمر طلبت مني معاقبتها ، وأخبرتني عن سوء تفاهم حصل بينها وبين "فيرونيك" في مطعم المدرسة ، حين أرادت ابنتي أن تتلاعب ، وتتخطى دورها في طابور استلام الطعام : تصديت لها ، وأرسلتها لتقف في الصف الأخير.

حين أخبرتني "ليليان "عن الحادثة ، شعرت أنها قالت نصف الحقيقة ، و لم تخبرني بأساس المشكلة، ولكن ذلك لم يؤثر على علاقتي بها. كنت في الأصل مشدوداً إليها ، وإلى سوئها ، لا بل يمكن القول إنني كنت مشدوداً ل
إلى سوءها أكثر من انشدادي لها ، وكأن علاقتي بها عبارة عن تصفية حسابات مع الماضي ، وتحرر من حياتي السابقة.

حين عدت إلى البيت ، كان النصف الآخر من الحقيقة بانتظاري. لقد حلت" فيرونيك" تلك المشكلة بطريقتها المعهودة- البكاء - . قالت لي إن" ليليانتك" (هكذا قالت عنها، ونسبتها إلي) قد أذلتني أمام الزملاء ، وأكدت لي ، وهي تبكي أنها تركت الطابور لحظة بسبب اضطرارها إلى التبول ، وحين عادت إلى مكانها ، كانت"ليليان " قد حرضت عليها زميلين كانا واقفين في الطابور ، وهذان

أخرجاها عنوة من الطابور . وعدت ابنتي بأنني سأستقصي الأمر من" ليليان" .

- حرضتهما عليّ كالكلاب . أنهت شكواها ... بقيت تلك الكلمات محفورة في رأسي إلى أن التقيت "ليليان" في اليوم التالي بالقرب من البحيرة . بدأت الحديث معها بشيء من الحدة ، واتهمتها بتقصد إزعاج ابنتي ، ولدهشتي رأيتها تبكي ، وتذرف الدموع ، اقتربت مني ، و حضنت رأسي بين كفيها، ووضعته على صدرها ،ثم وشوشتني قائلة : إنني أحسد " فيرونيك" لأن بوسعها البقاء معك وقتاً طويلاً، في الوقت الذي لا تهتم بي سوى ساعتين فقط . مررت يدي على شعرها الناعم بحنان ، وشممته ، وشعرت بالسعادة التي كنت بحاجة إليها، ونسيت في الحال كل ما يتعلق بابنتي .

كانت كلبة" ليليان" أثناء ذلك واقفة بالقرب منا ، وعيناها تراقبانني، وشعرت أنها تهددني، وتتهمني بإزعاج "ليليان" ، والتسبب في بكائها ، وكانت في تلك الأثناء قد توقفت عن اللعب مع كلبي الذي كان في مزاج رائع ، لأنني وجدته يقفز فوق أوراق الشجر، وأغصانها المبعثرة هنا وهناك من حولنا ، أما كلبة "ليليان" فقد كانت طوال الوقت تراقبني ، وتتتبع في الوقت ذاته عيون "ليليان" منتظرة أوامرها لتبدأ الهجوم . لقد أثمر تدريبها القاسي ، وجنت "ليليان" ثمار تعبها . وحدث عدة مرات أنها بادرت بالهجوم على "ريكي" الذي كان يمر من أمامها، ويلعب معها ، ولولا تدخل " ليليان" لكانت ربما مزقته بأنيابها ، وافتعلت قتالاً لا نهاية له.

لم يكن "ريكي" في الأصل من الكلاب المقاتلة مثل جروة "الليليان" المتوحشة ، لهذا بدأ المسكين بأخذ احتياطاته خوفاً من "الليليان"، ومن كلبتها التي كانت مدة ليست بالبعيدة صديقته الحميمة.

جاءت بداية حزيران حارة ، وكانت مضاجعتنا تنتهي بتعرق شديد ، إضافة إلى رائحة الجنس التي كانت تعبق بقوة من جسدينا ، لهذا اقترحت "الليليان" أن نغطس ، ونبرد أجسامنا بعد انتهائنا مباشرة في البحيرة ، وفي غمرة سعادتي ، ونشوتي ، وافقت على عرضها دون تحفظ ، ركضنا عاريين إلى البحيرة ، وبدأنا نلعب ، ونغطس في الماء كطفلين صغيرين ، ونسينا ما كنا قد اتفقنا عليه من التزام بالسيناريو الذي يجعلنا نخفي علاقتنا أمام الناس . تذكرت الاتفاق في اللحظة التي لمحت فيها بعض معارفي يتنزهون على ضفاف البحيرة ، كانوا يراقبون أفعالنا بتطفل . أخذت أغطس رأسي في الماء لكي لا يتعرفا على وجهي ، ولكن محاولتي باءت بالفشل ، لأن الكلاب سهلت التعرف علينا.

كانت ردة فعل "الليليان" مختلفة تمام الاختلاف عن ردة فعلي . بدأت تصرخ على كلبها، وتعطيه أوامر يصعب فهمها ، لهذا وجدته بعد لحظات يركض مسرعاً نحو زوجين كانا ينظران إلينا بفضول مندهشين من تصرفاتنا الصبيانية في وضح النهار . بدأت كلبة ليليان المتوحشة تنبح في وجهيهما ، وتخفض رأسها، وتخطو خطوات قصيرة وهي تحضر نفسها للهجوم . ابتعد الفضوليان على الفور ، ولم نعد نرى لهما أي أثر .

حين خرجنا من الماء أخبرت "ليليان" ، أن تصرفها كان غبياً، ولا ينم على ذكاء ، لأن هؤلاء الناس ربما سيشتكون عليها ، وعلى كلبتها . ردت عليّ قائلة بأنني إنسان ضعيف ، وأنها لم تعد راغبة في متابعة تلك المسرحية معي ، وخيرتني بين الاعتراف بعلاقتنا ، وإشهارها ، أو أنها ستجد لنفسها إنساناً أكثر جرأة مني . لم أجد في تلك اللحظة جواباً ملائماً سوى القول ، بأن الحديث الآن لا يدور حول علاقتنا ، وإنما يتعلق بالخطأ الذي ارتكبته بإعطائها الأوامر لكلبها الذي كاد أن يتسبب بالأذى .

وضعت "ليليان" ساعدها على أنفها واشتمت رائحة جلدها ، وقالت بعصبية إن رائحتها كريهة بسبب ماء البحيرة ، وعليها أن تستحم في الحال . استدارت ونادت على كلبتها ، وتركتني .

حين وجدت نفسي وحيداً ، هاجمتني موجة من الغضب جعلتني أسأل نفسي عن سبب خوفي وحرصي الزائد ، كما تنبهت أن كلبة "ليليان" قد أصبحت أكبر من كلبي ، وأن " ليليان " هي الأخرى أصبحت أكبر مني ، وإن حلمي بالهروب إلى مكان بعيد ، لم يكن رومانسياً بقدر ما كان سخفاً مني . لقد عرتني " ليليان " وجردتني من الفانتازيا التي كنت أعيشها، وها هي الآن تطلب مني حلاً صريحاً ، ومباشراً لعلاقتنا. أرادتني أن أتصرف كرجل شهم، ولم تختر من صفات الرجولة سوى ما يتعلق بالاعتراف بعلاقتنا ، وهذا ما كنت أخشاه .

يبدو لي أنني فقدت ابنتي ، وفقدت معها " ليليان" في نفس الوقت ، وذلك بالرغم من الاختلاف الواضح بين

شخصيتيهما ، ومقدارهما عندي . لقد أحببتهما ، وأردت الاحتفاظ بكلتيهما. "ليليان" التي كانت تلعب من أجلي دور الحبيبة العاهرة ، وابنتي " فيرونيك" التي كنت أشكل لها سنداً قوياً في هذا العالم . راودتني فكرة غريبة ... ماذا لو كنت قد غرقت في البحيرة ، وأنهيت كل شيء دفعة واحدة. نظرت في وجه "ريكي" ، وداعبته لحظة ، وانطلقت نحو بيتي .

لم يبق إلى نهاية العام الدراسي سوى بضعة أيام حين أخبرتني" ليليان" أنها في بداية العطلة ستسافر إلى اليونان .. إلى البحر ، لتعمل في أحد مخيمات الأطفال . شعرت بالحزن لأنها لم تخبرني حتى بأنها ستشتاق إلي ، ولو من باب المجاملة ، كما شعرت أنها منذ شجارنا الأخير بعد سباحتنا المشتركة ، بدأت تلعب دوراً مختلفاً ، لا مكان فيه للعواطف،وبدأت تعاملني ببرودة، وتتحاشى الحديث عن كلبتها كما كانت تفعل في السابق، وفي آخر لقاء أخبرتني أن كلبتها أصبحت بالغة ، وجاهزة للحمل ، وأنها في صدد البحث عن كلب أصيل ... مختلف عن قزمي ذي اللحية.

لا أعرف ما أصابني ، وجعلني أسألها إن كانت ترغب في إنجاب طفل معي . تأملتني غير مكترثة بكلامي ، وقاستني من رأسي حتى أخمص قدماي ، وقالت ساخرة: هل فقدت عقلك ؟ كان سؤالي في الحقيقة ضرباً من الجنون، ولا أعرف الآن كيف كنت سأتهرب لو أنها ردت بالإيجاب. .

تعودت عائلتنا في يوم توزيع أوراق العلامات (كم أبدو مضحكاً حين أستعمل عبارة عائلتنا) أن تحتفل في إحدى مطاعم المدينة المحترمة ، وكنا نعتبر هذا الطقس

بمنزلة هدية متواضعة نقدمها ل "فيرونيك" ، وكانت هي الأخرى تشعر بالسعادة من هذا الاحتفال . لهذا السبب جهزت "ليليان" قبل أيام لهذا الحدث ، وأخبرتها ألا تحسب حسابي في ذلك اليوم، وما حز في نفسي أكثر هو أنها كانت ستغادر في عشية اليوم التالي إلى اليونان ، لتكون هناك قبل يوم من افتتاح المخيم مع بعض المسؤولين. كان لشرحي "الحذر" عن مرافقتي لابنتي بعد حصولها على دفتر العلامات ، و"أمها" لتناول العشاء – هكذا تعودت وصف زوجتي- وقع يدل على تفهم جيد لم أنتظره من "ليليان" . كررت قولها : إن كان هناك سبب للاحتفال ، فيجب أن نحتفل .

حين وقع نظري على دفتر علامات "فيرونيك" ، أدركت في الحال مغزى كلام "ليليان". لقد ساءت علامات ابنتي بشكل لا يمكن تصوره. لم تكن "فيرونيك" في يوم من الأيام من المبرزات في المدرسة ، ولكنها الآن لم تحصل حتى على المعدل المطلوب للنجاح في مادتي الرياضيات ، والفيزياء .أعرف أن هاتين المادتين خاصة لم يشكلا معضلة بالنسبة لها في السابق . صحيح أني أهملت ابنتي ودراستها في الأسابيع القليلة الماضية ، كما فقدت اهتمامي بدراستها بشكل عام ، ولكني لم أتوقع منها هذا التراجع .

لهذا لم يكن هناك ما نحتفل به – وهذا الأمر كانت" ليليان" تعرفه من زملاء "فيرونيك" في الصف – ومع ذلك كنت مصراً على الذهاب إلى أي مكان نجلس فيه معاً، ولكن "فيرونيك" رفضت اقتراحي بسبب صداع مفاجئ أصابها . بدت شاحبة الوجه مثل الجدار ، و كانت في حالة

نفسية تعيسة ، وبدا ذلك واضحاً من تقاطيع وجهها ومن تصرفاتها ، كما أنها تقيأت عدة مرات في الليل.

بعد ظهيرة اليوم التالي التقيت "ليليان " بغية وداعها قبل السفر . سألتني مباشرة عن سهرة الليلة السابقة ، وبما أني لم أكن في وضع نفسي ملائم لم أجبها لأني في ذلك اليوم خاصة لم أتحدث مع أحد ، ومع ذلك أصرت على سماع الجواب . كان تفكيرها قد وصل إلى البعيد ، وأصبح يحلق في أجواء بحر "إيجه ". شددتها إلى صدري، تنهدت في الحال ، وطلبت مني أن أضاجعها بعنف ، وقالت إنها تريد الوصول إلى الذروة عدة مرات ليبقى هذا الإحساس ملازماً لها طوال الأسبوعين القادمين . تخيلت في تلك اللحظة ماذا ستفعل في اليونان ، وتصورتها تتمشى نصف عارية على البلاج بين نظرات الرجال ، وتعليقاتهم . فضلت في النهاية التوقف عن التفكير بهذه الطريقة العقيمة، وركزت جهدي على تأجيج شهوتها ، ورغبتها في ممارسة الجنس . حين وقع نظري على الكلاب وجدت كلبي ذو اللحية مستلقياً على ظهره ، في وضعية استسلام كاشفاً عن بطنه ورقبته ، وكانت كلبة "ليليان" شبيهه الذئب تستند عليه ، وكأنها قد اصطادته لتوها .

قبل أن نفترق ، طلبت مني "ليليان" عنواني في الشغل ، لكي ترسل لي بطاقة من اليونان .

لم يكن ل "فيرونيك" في الأيام الأولى من العطلة أية برامج خاصة، لهذا السبب لمحت لها بلطف أن تبدأ الدراسة ، وتحضر نفسها لفحص الإكمال الذي يأتي موعده بعد شهرين من نهاية العطلة وزيادة في إبداء اهتمامي أخبرتها عن استعدادي لمساعدتها في التحضير، إن كان

ذلك سيساعدها. وافقت مباشرة ، وفاجأني ردها السريع ، ولكني شعرت بعد ذلك أنها ربما أسفت هي أيضاً لموافقتها.

أخذت كتب "فيرونيك " معي إلى العمل ، وبما أني رفضت في السابق استلام وظيفة رئيس القسم ، أصبحت مهماتي أقل ، ولم يعودوا يكلفونني بمهمات استثنائية ، وكان لدي وقت فراغ لا بأس به.أخذت أدرس في العمل المادة التي عليّ مراجعتها مع "فيرونيك" بعد الظهيرة، وأثناء تصفحي لدفتر تدريباتها ، لاحظت أن معظم الأخطاء التي ترتكبها كانت بسبب عدم تركيزها أثناء متابعة الحل ، لأنها كانت تستخدم القوانين الصحيحة ، ومع ذلك تخطئ في الجمع ، والتقسيم . ربما كان السبب المباشر لعلاماتها الضعيفة أتياً من عدم تفهمها لعلاقتي مع "ليليان" . كانت تشعر بالضغط في البيت ، وفي المدرسة ، لاسيما حين كانت مضطرة إلى رؤية " ليليان" .

كانت أياماً صيفية جميلة ، جعلتنا نراجع الدروس على ضفاف البحيرة. لفت انتباهي معرفة " فيرونيك" لتلك البقعة ، كما وجدت " ريكي" يتحرك أيضاً من حولنا دون صعوبة، وبدا لي أكثر هدوءاً في غياب "ليليان" ، وكلبتها المتوحشة ، كما رأيته على غير عادته يقفز في ماء البحيرة محاولاً الصيد .

كنت أراقب "فيرونيك" أثناء حلها للمعادلات الرياضية. وجدتها ترتكب على الدوام نفس الأخطاء التي كان سببها الأساسي - حسب رأيي- عدم التركيز ، ولكني تأكدت في الوقت ذاته أنها لا تكره تلك المواد، وأنها مهتمة بالحصول على علامات جيدة في فحص سبتمبر.

لا أتذكر بالضبط متى انقطعت الخيوط بيني وبين ابنتي ، ولكن علاقتي مع "ليليان" بالتأكيد لم تكن السبب المباشر لتردي تلك العلاقة، لأن شعوري الباطن بفشلي أباً كان يلازمني قبل انتقال "ليليان " للسكن في حينا بوقت طويل . لهذا السبب فوجئت الآن بتحسن العلاقة بيننا بالرغم من ذلك الانقطاع الطويل . لم أفقد صبري بسبب أخطائها المتكررة، ولم يخطر ببالي أنني كنت أضيع وقتي الذي كان بإمكاني استغلاله بشكل أفضل . كما لم تفقدني أخطاؤها هدوئي ، وشعرت أني تأقلمت ، وتوحدت مع دوري معلماً . حقيقة الأمر لم أكن أمثل دور المعلم ، ولكني شعرت أن تصرفي طبيعي ، كما أن" فيرونيك" هي الأخرى ثمنت عملي ، وتأكدت من ذلك حين سألتني زوجتي بعد أربعة أيام بشكل استفزازي ساخر : هل أخذت تعتني بتلميذة أخرى بعد أن تركتك تلميذتك .... ردت عليها" فيرونيك" بحدة قائلة : إنها تقدر جهودي ، وتشكرني على مساعدتها ، وأنني لا أتصرف مثلها ، وكل همي إلحاق الضرر بالآخرين. . حاولت أن أتذكر ، متى وقفت "فيرونيك" إلى جانبي أثناء خلافاتنا الزوجية للمرة الأخيرة ، ولكني لم أتذكر.

سمعتهما في ذلك المساء تتحدثان في المطبخ . أخذت زوجتي على " فيرونيك" خيانتها واستخدمت كلمة "عميله "، ولكن ابنتي لم تفهم معنى تلك الكلمة، وإلى أن فسرت لها معناها كانت قد فقدت أهميتها .

كنت أقضي النهار مع " فيرونيك" ، ولكن الليل كان من نصيب ليليان التي كانت ترتسم صورتها أمامي في اللحظة التي أضع رأسي فيها على الوسادة ، بشعرها المتطاير،

وبنظراتها الجريئة التي كانت تهزمني ، ولم أكن أتحملها ، وربما هي السبب الذي جعلني أتعلق بها . وحين أتذكر التحامي معها تنتصب أمامي فجأة صورتها ، وهي في أحضان رجال آخرين. تخيلتها برفقة رجال يونانيين مختلفي السن ، وتخيلتها ، وهي تمارس الجنس مع شبان لا يتعبون ، وجميع الرجال الذين كنت أتخيلهم معها كانوا أصغر مني سناً. لا بد أنها بعد تلك التجارب ستنظر إلى علاقتنا الجنسية بكثير من الاستخفاف . لم أكن أشعر بالغيرة ، ولكني كنت أخشى الإهانة ، ولا أريد أن أصبح مدعاة للتفكه والسخرية . كنت أعرف "ليليان" ، وأعرف أيضاً أن سخريتها ستصيب هيبتي بشكل لا يضاهيها فيه أحد، وهذا أمر لا يمكنني احتماله .

اشتقت إليها كثيراً ، ولكني كنت أخشاها أكثر .

شعرت أن ابنتي في نهاية الأسبوع الثاني بدأت تتحسن ، ولم تعد ترتكب نفس الأخطاء، وأخذت تركز بشكل أكبر، لاسيما حين كنا نستلقي على الحصيرة بجانب شاطئ البحيرة، ولكن هذا لا يعني أنها لن تخطئ أثناء تعصيبها في امتحان التكميل . كانت بحاجة إلى تمرين أكثر لكي تصل إلى الثقة اللازمة بنفسها . بفرح كبير أخبرت والدتها بأنها ستراجع معي المواد كل يوم.

لم ترسل لي" ليليان" البطاقة الموعودة من اليونان ، وهذا عزز توقعاتي بأنها منشغلة عني ، ووجدت لها في اليونان حبيباً تقضي معه وقتها . أصابتني نوبة من جنون الغيرة ، تبدلت بعد حين إلى كراهية ، ولكن ذلك الشعور لم يدم طويلاً ، وعدت بسرعة إلى توازني السابق ، لا سيما في الساعات القليلة التي كنت أقضيها برفقة ابنتي

"فيرونيك"، وغير ذلك كنت أترنح في الشك ، وأغوص في أوهامي ، وهذا أفقدني التركيز في عملي .

فكرت جدياً في إمكان إنهاء العلاقة مع "ليليان" مباشرة بعد عودتها من اليونان ، لأني لم أكن في وضع يسمح لي سماع أحاديثها ، ومغامراتها .إن أنهيت العلاقة من طرفي فإني على الأقل سأسترجع بعضاً من كرامتي المجروحة . استلمت قبل وصولها بيوم واحد بطاقة من اليونان. كتبت لي أن اليونان بلد رائع ، وأنها تجد الوقت الكافي لتفعل ما يحلو لها ، لكنها لم تحدد بالضبط ما تعنيه . ربما أرادت بذلك إشعال نار الغيرة في قلبي ، أو أنها أرادت أن تؤجج من شوقي إليها . كان بوسعها أن تكتب جملة لطيفة تعبر فيها عن شوقها للقائي ، أو أن ترسل لي قبلة عبر البطاقة ، ولكنها لم تفعل .

جاءت والدة "ليليان" في ذلك اليوم بصحبة جروة "ليليان" شبيهة الذئب إلى البحيرة.اقتربت الجروة من حصيرتنا ، وأخذت تنظر في وجه"فيرونيك" ، بعدها اقتربت مني ، وبدأت تتحسس سروالي بأنفها، وكأنها أرادت التأكد من هويتي . كنت جالساً ، وكان رأس الجروة يطل من فوق رأسي ، وبدون شعور وجدت نفس أستعد ، وألتقط حفنة من التراب لأرميها في عيونها إن احتاج الأمر .

نادت والدة "ليليان" الجروة، وأشارت إلي بكلتا يديها معتذرة عن سلوك الجروة وفضولها . كان الشبه بين "ليليان" ووالدتها كبيراً إلى الحد الذي يمكن فيه القول إن والدتها قد عطستها . كانت لهما نفس تقاطيع الوجه ، وذات القوام لكن والدتها بدت قبيحة في سنها ، وهذا نبهني إلى ما

ستبدو عليه "ليليان" في المستقبل ، وإلى أين سيؤول بريقها الحالي . ربما يكون جمال المرأة له علاقة بالزاوية التي نراها منها .

تمعنت "فيرونيك" طويلاً في والدة "ليليان" ، وسألتني ، إن كنت قد أحسست في يوم من الأيام بالخوف من كلبة "ليليان". لم أجبها على سؤالها ، بل رفعت كتفي ، وفهمت هي قصدي .

اتصلت بي " ليليان " في اليوم التالي عند الظهيرة ، وكانت قد حضرت لتوها من المطار، وطلبت مني أن ألقاها بعد الظهيرة ، وقالت بالحرف الواحد: "أرغب في التحدث إليك بعد الظهيرة" . بدا لي صوتها محايداً ، دون طعم عبر سماعة الهاتف، لذا تصرفت معها بنفس الطريقة . اتفقنا على اللقاء في الخامسة بالقرب من البحيرة.

اضطررت إلى الإسراع في إنهاء عملي ، ولم أتأخر في البيت . كانت ابنتي تعتبر خروجنا معاً بعد الظهيرة أمراً مفروغاً منه . حاولت أن أشرح لها بهدوء أننا سنترك الدراسة اليوم –اليوم فقط- لأنني مشغول في مسألة ضرورية . بقيت واقفة تراقبتي مندهشة بين درفتي الباب بينما كنت أبدل ثيابي . لا بد أنها بدأت تفكر في السبب الذي منعني من الدراسة معها ، وأطلقت العنان لإحدى سخافاتها التي تقول الأشياء كلها مرتبطة بعضها ببعض . حضرت في تلك اللحظة زوجتي من المطبخ ، وسألت "فيرونيك" بلهجة ساخرة إن كنت قد آثرت تدريس طالبة غيرها في ذلك اليوم . انفجرت ابنتي بالبكاء. تنهدت ونظرت بأسف في وجهها ، وكررت ما قلته لها قبل قليل من أن درس اليوم سيؤجل إلى الغد ، ولكن نظراتي التقت مع نظرات

زوجتي التي لم يكن بوسعي سوى أن ألوح لها بيدي غير آبه بها، وبتعليقها ، وأنا أغادر البيت . سمعت بعد خروجي في الحال تبدل بكاء ابنتي "فيرونيك" في زعيق لا يحتمل.

ذهبت إلى البحيرة بدون " ريكي"، مشحوناً بالغضب من "الليليان" ، ومن زوجتي ، ومن ابنتي "فيرونيك" ، وربما من الناس أجمعين . عاهدت نفسي على أن هذه المرة الأخيرة التي أسمح فيها لزوجتي وابنتي بالتعامل معي بهذه الطريقة.

وجدت "الليليان" بانتظاري ، كانت مستلقية على العشب، مرتدية بنطالاً قصيراً مصنوعا من قطع صغيرة غير متناسقة من قماش الجينز ، يكشف عن فخذين لفحتهما شمس اليونان القوية، وتسببت في إزالة لون بشرتهما الأصلية التي وجدتها ملآى ببقع وردية ، وفعلت الأمر ذاته في كتفيها،أما منظر وجهها فكان الأسوأ ، لأن أنفها، وذقنها كانا مصبوغين بالأحمر،كما ظهرت تحت عينيها بقع وردية ، وتناثرت هنا وهناك حول أذنيها بقع أخرى بنية اللون . أما فمها فكان متورماً يكاد أن ينفجر ، وشفتاها متشققتين .

بقيت واقفاً في مكاني . تبادلنا النظرات دون أن يلقي أحدنا التحية على الآخر . أخيراً سألتني إن كنت أرغب في الاستلقاء بجانبها ، وبدون تفكير طويل أجبتها أن لا رغبة عندي . هنا بدأت تظهر على وجهها علامات الغضب . دفعت الجروة بحركة من يدها ، ووقفت بجانبي . سألتني : ما الخطب ؟ وبدون شرح طويل أجبتها: ... انتهت علاقتنا . ما كان أسهل أن استدير ، وأترك صبية مبقعة البشرة في مكانها ، وأغادر .

أذهلني منظر تلك الفتاة الأنانية بعد سماعها كلامي ... وجدتها قد انكمشت على نفسها في الحال ، وبدأت تبكي ، وتطلق عبارات غير مفهومة ذكرتني بشيء لم أفهمه في الحال ، وحين استدرت وجدت "ليليان" تمسك برأس جروتها شبيهة الذئب ، وتشير إليها بالتحرك نحوي ، مطلقة أوامر كنت قد سمعتها من قبل حين أمرتها بمهاجمة القطة.

بدت الجروة في حيرة من أمرها ، ولكنها مالبثت أن استفاقت ، وأدركت أن أوامر "ليليان" جدية ولهذا أخذت تتحرك نحوي في البداية ببطء . انطلقت أجري بكل ما أوتيت من قوة ، وعيناي تبحثا عن غصن شجرة يمكنه مساعدتي في الدفاع عن نفسي أمام تلك الجروة المتوحشة . في النهاية وجدت طلبي . التقطت الغصن، وحين أمسكت به سمعت حفيف أقدام الجروة التي كانت قد اقتربت مني . توقفت للحظة في مكانها ، وكأنها كانت تعاير المسافة بيني وبينها ثم ما لبثت أن قفزت نحوي، ولكنها لم تطلني لأني أصبتها على الفور، وهي تطير نحوي في فكها السفلي ، وهذه الضربة تسببت في سقوطها. تراجعت إلى الخلف ، ولمحت الدم يسيل من زاوية فمها .

تحركت نحوها رافعاً الغصن، ولكن ضربتي الثانية لم تكن بنفس القوة والتركيز كما كانت الأولى ، لأن الغصن مر فوق رأسها، وتمكنت من التقاطه بأنيابها . وهنا بدأ الصراع بيننا على الغصن ، ولو كانت الجروة في تلك اللحظة لم تتعامل مع الغصن على أنه عدوها لكانت بالتأكيد قد تمكنت مني .

فجأة سمعت نباحاً يشبه الصفير ... استدرت ، ورأيت كلبي " ريكي" يلهث من خلفي ، ولكنه ما لبث أن تركني ،

وأخذ يدور، ويهاجم كلبة " ليليان" المتوحشة ، وتمكن بصعوبة من الإمساك بطرفها الأمامي بأنيابه ، ولكن المتوحشة تخلصت منه بهزة قوية من طرفها ، وبسبب تدخل " ريكي" المفاجيء تمكنت من الاحتفاظ بالغصن .
وبالرغم من أن كلبي لم يكن بقوة كلبة " ليليان" ، إلا أن تدخله شغلها عني لحظة، وهذا جعلني أتلفت باحثاً عن " ليليان " ،ولكني لم أجدها ، صرخت طالباً منها أن تبعد كلبتها عني ، وإلا فإني سأكسر رأسها ، ولكني بدلاً من تدخلها لإيقاف الجريمة، سمعتها تصدر أوامر معاكسة تحرض فيها الكلبة على متابعة الهجوم . قفزت الكلبة باتجاهي من جديد ، وتمكنت من إمساك طرف الغصن بأنيابها القوية، وراحت تهزه بعنف إلى أن وجدته ينفلت من يدي، وبذلك أصبحت فجأة دون سلاح . تدخل " ريكي" من جديد، وعض الكلبة المتوحشة من طرفها ، وجعلها تستدير نحوه ، استغللت انشغالها، وانطلقت راكضاً نحو البحيرة . وفي لحظة دخولي الماء سمعت أنات ألم كلبي المشورب ، استدرت لأجد الكلبة المتوحشة تخطو في الماء بحذر من خلفي . حين وصلت إلى عمق تجاوز خصري ، كانت واقفة في الماء ، تفكر فيما إذا كان عليها اللحاق بي ، أو التراجع ، لمعرفتها أن الماء ليس أفضل مكان لصراعها معي . ثنيت ركبتي إلى أن بقي رأسي ظاهراً فوق الماء ، وحين وجدت الجروة، أنه لم يبق من عدوها سوى رأسه قررت المجازفة ، واللحاق بي .
حاولت استدراجها أكثر فأكثر إلى داخل البحيرة ، ونجحت خطتي ، ولكي تصل ، وتهاجمني كان عليها أن تبدأ السباحة ، وهنا أخذت أخطو متراجعاً على ركبتي إلى

العمق بما يتناسب مع سرعة سباحتها. كنت أتحرك على الدوام بانتباه لكي أبقى في عمق أتمكن فيه من الوقوف على قدمي بينما كان على الكلبة أن تسبح لتطالني. كانت حركتي بالطبع بطيئة كون ملابسي تحت الماء بدأت تلتصق بجسدي . سمعت صوت نباح كلبي الذي لزم الوقوف على الشاطئ ، صرخت به، وأمرته بالبقاء في مكانه ، لأني سأكون على الأغلب سيد الموقف في الماء ، وكل همي كان منصباً على عدم إحساس كلبة" ليليان" بنقطة قوتي . تمكنت لفترة من متابعة خطتي ، وحثثت الجروة على متابعة السباحة لتدخل أكثر في البحيرة . نهاية الأمر غطست تحت سطح الماء، وسبحت لأستقر خلفها من دون أن تشعر بي ، لقد أفقدها التعب حسها بالمكان ، ولم تتمكن من التأقلم بسرعة مع اختفائي السريع عن نظرها . لذا فاجأتها حين قفزت فوقها من الخلف ، وأمسكت رقبتها، وغطست رأسها في الماء .... حاولت التخلص مني ، وبدأت ترفس ، وتتلوى بقوة في محاولة منها للهرب من قبضتي ولكنها لم تفلح .

كان صراعاً طويلاً وشاقاً تمكنت الجروة المتوحشة في إحدى مراحله التخلص من قبضتي ، والهرب باتجاه الشاطيء ، ولكني تمكنت من الإمساك بها قبل أن تصل إلى عمق يمكنها فيه الوقوف على قدميها ، سحبتها من جديد إلى الداخل . كانت يداي ترتجفان من التعب، وانتابني شعور بالإقياء ، ولكني هذه المرة بقيت ممسكاً برأسها بقوة تحت الماء. حاولت التخلص مني للمرة الأخيرة، ولكنها فشلت ، أحسست بعدها بتناقص حركتها ، وخوار قوتها

إلى أن توقفت نهائياً عن الحركة ، وشعرت برأسها يرتخي بين يدي تحت الماء .

خرجت من الماء بصعوبة ، وبشعور كبير بالإعياء ارتميت على الشاطئ . لم أجد "ريكي" بانتظاري هناك . كنت سعيداً لأني خرجت حياً من هذه المعركة ، وبدلاً من الجريمة التي كنت قد أُجبرت على التفكير فيها في البداية ، انتهى الأمر بمقتل كلبة متوحشة .

استلقيت على ظهري ، وأخذت أتنفس بعمق ، ولكني سمعت في الحال حفيف أقدام تقترب مني . فتحت عيناي ونظرت إلى الأعلى ، ولمحت في هالة أشعة الشمس الغاربة يدين تحملان صخرة كبيرة، وترميها فوق رأسي .

وهذا كل شيء .

إن المؤلفين الشباب يأخذون على الكاتب عدم توفقه في قفلة الرواية .

لقد قرر الكاتب إنهاء "لاف ستوري"بجريمة سببها الغيرة . في الصفحة 15 كانت زوجة البطل قد قالت " إنه ميت بالنسبة إلي" . لماذا لا تكون الزوجة هي القاتل؟

لماذا لا تكون "فيرونيك" الابنة قد لحقت بوالدها إلى البحيرة ، وحين وجدته مع " ليليان" أقدمت على قتله في لحظة غضب جاء نتيجة قطعه الخيط الذي بدأ يتشكل بينهما .. إنني لا أجبر أحداً على أحذ هذه الفرضية نهاية .

أسوأ ما في الأمر أن الكاتب تغاضى عن حقيقة كون الشرطة قد وجدت في اليوم التالي للجريمة جثة صبية تطفو على سطح البحيرة .

أراد الكاتب أن يترك النهاية مفتوحة .

بماذا يمكن أن يحلم الدكتور تومبسون ؟

لم يفكر طوال حياته ، وحتى اللحظة التي أصيب فيها بالمرض ، أنه سيحلم ، كما أنه لا يتذكر أنه حلم في طفولته أو شبابه ، ولكنه مع ذلك قرأ أبحاثاً ، و مقالات شهيرة تتحدث عن الأحلام ، وعن مراحل تشكلها ، والزمن الذي يستغرقه الحلم ، وعرف منها أن الحلم لا يستغرق سوى ثوان معدودات . كان متأكد أن تلك التفاعلات النفسية لم تحدث له في الماضي، وهذا الأمر لم يضايقه ، ولكنه تأكد الآن ، حين أيقظه صفير مضخة السيروم من النوم، أنه كان غارقاً في حلم، وعزا ذلك إلى كمية الضغط النفسي الذي يعيشه لا سيما بعد أن أبلغه الطبيب المسؤول تشخيص مرضه . أحس بعد عدة أيام أن الحلم قد أصبح ملازماً له كصديق ، وأنه أصبح التسلية الوحيدة التي يعيشها، وقد أرسلها إليه الله لتعينه ، ولتخفف عنه معاناته خلال إقامته في المشفى ، وتجعله يحلق في تفكيره مبتعداً عن المرض ، وعن نتائجه . حاول جاهداً في ساعات النهار استعادة تفاصيل أحلام الليل، وذلك بالرغم من تأكده أن أحداثها لم تكن مسلية ، وفي غالبيتها تصور أياماً مملة من حياته ، كانت تلعب فيها على الدوام شخصية مركزية واحدة، لم تتبدل على الإطلاق ، وهي شخصية إنسان يعيش حياة عادية ، ويقضي معظم وقته في التهام الأكل ، أو في ملء استمارة، أو يقضي يومه جالساً في المخبر خلف الميكروسكوب يبحث عن كائنات غير واضحة المعالم . كانت هذه الشخصية في بعض الأحيان تظهر على شكل

طبيب يفحص مريضه ، وهذا يفسر مدى تأثره بالأوضاع التي يعيشها في المشفى .

لقد أصبح للحلم مكان مميز في حياته، ووجده - بغض النظر عن محتواه- مسلياً، كما وجد في نفسه ميلاً لمعرفة المزيد عن آليات حدوثه ، وهذا جعله يتشجع ويطلب من أخيه تزويده بمراجع تبحث في الحلم .

عرف من خلال الكتب ، أن الدماغ يمر أثناء حدوث الحلم في أربع مراحل ، وأن العيون تتحرك بسرعة أثناء الحلم ، وهذا يسبب تبدلاً مستمراً في أوضاع النائم ، كما قرأ بحثاً مشوقاً آخر يتحدث عن زيادة كبيرة في نشاط خلايا الدماغ أثناء الحلم يفوق النشاط الحاصل أثناء متابعته التلفاز.

تعرف من خلال قراءته على" تسيتسرو"(1)الفيلسوف الروماني، وصرخته الشهيرة " إنه الشاب الذي حلمت به"، وعن حظر القيصر " تيبرو" (2) استقراء المستقبل استناداً إلى الحلم ، وتشخيص الأمراض حسب طريقة الإله "أسكلبيا"(3) . كانت هناك العديد من المعلومات التي لم تكن تعني لإنسان في وضعه شيئاً مهماً .

أحضر له أخوه أيضاً موسوعة تفسير الأحلام من الناحية الفنية ، وباستغراب كبير تصفح بحثاً يتحدث فيه

---

1. تسيسيرو ماركوس 106-43 ق .م محام ،و سياسي ، وأشهر خطيب في روما القديمة. وقف إلى جانب "أوكتافيا" زوجة نيرون ضد "مارك أنطونيو" بعد مقتل القيصر.

2. تيبيروس كلاوديوس نيرون24ق.م-37 م . قيصر روما الماجن الذي حرق روما . عزز من مركز القيصر في مواجهة مجلس النواب .

3. أسكلبيوس إله الطب عند اليونان.

الكاتب عن مراقبة الأحلام ، و بحثاً آخر عن صيادي الأحلام ، ووجد دراسة عن قصة جرت أحداثها في المشفى . رجل حلم أثناء غيابه عن الوعي أنه تحول إلى وحش يركض في الغابة . لا..لم تكن تلك المعلومات التي يبحث عنها . استغرب رئيس القسم- أثناء زيارته الروتينية الصباحية - حين لمح على طاولته كتاب تفسير الأحلام ل ـ"فرويد" الذي يعتبره الطبيب ضعيفاً في تفسيره للحلم ، لا بل يعبر عن غباء .

لقد سحرته الأحلام ، ووجد فيها ما ينبش من عمق ذاكرته بشكل مفاجيء مقاطع من أحلام زارته في الماضي. إذاً لقد كان يحلم في الماضي ! تذكر في الحال حلماً من طفولته؛ كان يمتطي فيه حصاناً في الصحراء ، و مقاطع من حلم آخر قديم ، كان يقود فيه سيارة في المدينة ، بينما كان أحد أصدقائه يجلس ثملاً في المقعد الخلفي برفقة فتاة أخذت تداعب ركبته في الوقت الذي كانت فيه حبيبات من البرد ترتطم بقوة على الزجاج الأمامي للسيارة . اختلطت عليه الأشياء ، ولم يعد متأكداً من أن ما يتذكره حلماً أو حقيقة عاشها ، أو أنها ربما ذكريات من شريط سينمائي قديم .

بدأ مرضه قبل ربع سنة بآلام مبرحة أخذت توقظه من نومه ، ولهذا كانت الأحلام ، -إن كانت موجودة في الأصل - تتلاشى من ذاكرته بسرعة قبل أن تسمح له باستعادتها. أو أنه في تلك الأثناء لم يكن يحلم بشيء .

اختفى ألمه بعد العملية الجراحية ، ولكنه وجد نفسه في الأسابيع التالية متعباً خائر القوى ، وأخذ يمضي معظم وقته في النوم ، ولا يتذكر أنه حلم في تلك الأثناء .

حين بدأت بعد ذلك معالجتة بالسيرومات أزعجه صوت صفير آلة ضخ السيروم المثبتة بجانب سريره ووجده قوياً لا يمكن تحمله لأنه لا يتوقف عن العمل ليلاً نهاراً ، ويقوم بوظيفة تنبيه الممرضة لتبديل الزجاجة الفارغة بأخرى مليئة تمد عروقه بسوائل لا يعرف تركيبتها. تحمل هذا الشقاء على مضض لأنه كان يثق بالأطباء الذين كانوا على الدوام يؤكدون له أن الطريق إلى شفائه معبد ، ولكنه طويل .

لقد أيقظه صفير آلة الضخ عدة مرات في تلك الليلة ، وفجأة عرف أن شيئاً ما يحدث في دماغه .إنه يحلم ، وتأكد بعد ذلك أنه لا يزال يتابع الحلم ذاته عن الرجل ذاته طوال أسبوعين ، وإلا كيف يمكنه تفسير ظاهرة عودته السريعة للنوم بعد تبديل زجاجة السيروم ، والغرق من جديد في الحلم ذاته ويتابعه من النقطة التي توقف فيها عند استيقاظه المفاجئ؟

كان بطل حلمه لا يزال في المخبر ، ينقل ما دونه في دفتر ملاحظاته إلى الحاسوب وحدث أنه بقي صاحياً في أحد الليالي فترة قصيرة ، وعاد إلى النوم من جديد ، وحلم بالطبيب ذاته، وهو يفحص نفس المريض .

لم يحلم في يوم من الأيام بأشياء سخيفة لا يقبلها العقل، أو بأشياء خيالية ،أو خارقة ، ولهذا السبب رمى جميع الكتب التي أحضرها أخوه جانباً لأنه وجدها تركز في شرحها على رؤى مفرطة في سرياليتها . لم يتقبل

شروحها، ووجدها غير مقنعة على الأقل في حالته . لم يحلم مثلاً أنه أو أن بطل حلمه قد سَقط في مغارة عميقة لا نهاية لها ، أو أن أسوداً تلاحقه ، أو أنه مربوط بصادم قاطرة ، أو أنه يمارس الجنس مع قريبته .

كانت أحداث أحلامه في غالبيتها تجري في بلاد غريبة أبطالها أشخاص مجهولون إلا أن كل شيء كان يجري بشكل منطقي قريب من الواقع .

فرضت عليه إحدى أحلامه فكرة مفادها أن الرجل الذي يتكرر في الحلم يمكن أن يكون إنساناً حقيقياً ، وجاءته تلك الفكرة في الوقت الذي بدأ علاجه بالفشل .

قام الأطباء بتغيير كمية السيروم ، وخلطة الأدوية ، وهذا جعله يستيقظ منهكاً . ويمكن القول أنه كان يستيقظ كل ساعة على صوت المضخة ، وفي اللحظة التي تصمت فيها يعود إلى النوم من جديد ، ويتابع حلمه السابق بعد استراحة قصيرة .

طلب من الممرضة أن تزوده بدفتر وقلم رغبة منه في إثبات أن بطل حلمه ما هو إلا نتيجة مباشرة لحالته النفسية المتردية . دون جميع الحقائق ، وافترض أنه خلال وقت قصير سيكشف منطقية الخلل من الفجوة التي سيرى منها أن ذلك الطبيب المجهول المفترض الموجود في الحلم لا علاقة له من قريب أو بعيد بالواقع .

أول ما دونه لم يكن مؤسساً على أحلام محددة بل كان وثيق العلاقة بخبرته السابقة. كانت أحداث أحلامه تجري في بلاد يتحدث أهلها الإنكليزية ، ومن اللهجة عرف أنها لم تكن إنكلترا ، وهي على الأغلب أمريكا أو كندا. دون في

دفتره أمراً آخر كان يتكرر دوماً: الرجل "بطل أحلامه" يأكل بشكل مستمر فواكه مجففة.

كان مرهقاً في الليل ، ولم يجد رغبة في تدوين أي شيء، ومع ذلك أجبر نفسه ، ودون بعض المعلومات مثل رقم باب المخبر الذي يعمل فيه بطل أحلامه : 411 ، ومباشرة في الليلة التالية أضاف إلى دفتره معلومة جديدة : إن العيادة التي يفحص فيها المرضى تقع في الطابق الأرضي من الجناح الثاني للمشفى .
كان طبيب حلمه يقضي معظم وقته في المخبر ، وربما كان يغادر في الصباح ليأخذ قسطاً من الراحة في بيته . بدت له تلك الأفكار مضحكة . أراد أن يتأكد فيما إذا كان الطبيب يخرج إلى بيته ، ولهذا حاول أن ينام خلال النهار ، ولكنه لم ينجح في البداية ، واستغرق ذلك منه أسبوعاً كاملاً، علماً أن آلة الضخ لم تتوقف عن العمل ، وكانت توقظه على الدوام كما في السابق من حلمه الغريب الذي كانت أحداثه تجري في الماء ، وتصور له طبيب حلمه، وهو يسبح ، ولكنه لم يكن متأكداً من هذه الفكرة .
أراد معرفة نوع البحث الذي يقوم به الطبيب ، ووجد أن الفحوص التي يقوم بها على المرضى روتينية ، وأن جوهر اختصاصه هو عمله في المخبر. ولم يشكل له اكتشافه أن الطبيب يبحث عن علاج لمرضه أية مفاجأة ، لأنه طوال الوقت كان شبه متأكد أن ذلك الرجل من حلمه لا يمكنه أن يكون سوى ردة فعل على الحالة النفسية التي يعيشها في المشفى . . لقد اكتشف بالضبط ما كان يتوقعه .إن وضعه الصحي المضطرب ، والحالة النفسية التي يعيشها بسبب

فشل علاجه، كل ذلك تسبب في جعله يحلم بذلك الطبيب الذي سيشفيه من مرضه. تمنى لو أنه بتلك الطريقة سيتعرف أكثر إلى نفسيته ، وبذلك ستختفي أحلامه عن الطبيب .

عاد الألم لينغص حياته من جديد ، ولكي يخلصوه منه ، باشروا بحقنه بمواد منتجة من المورفين ، وهذا جعله ينام لوقت أطول ، ومن ثم يستمر بالتعاطي مع أحلامه السابقة . لقد تعرف الآن على اسم الطبيب "بيتر تومبسون "

وقف الطبيب في أحد المؤتمرات ، ويبدو أن بحثه قد لقي نجاحاً كبيراً . لو كان هناك طبيب بهذه المواصفات فلربما سيكون عوناً له في التخلص من مرضه.

كانت تؤرقه لعدة أيام فكرة معينة لم يكن متأكداً ، متى، وكيف جاءته تلك الفكرة ، ولهذا لم يتحمل ، وطلب من طبيبه المعالج أن يستشير ، ويتدارس موضوع مرضه مع الطبيب "بيتر تومبسون" ، ولكنه لم يتمكن من تحديد المكان أو المشفى الذي يعمل فيه ذلك الإخصائي .

طلب من أخيه في ذلك اليوم أن يبحث عبر الإنترنت عن ذلك الطبيب، وحلم في تلك الليلة أن ذلك الطبيب "بيتر تومبسون" كتب بأحرف كبيرة على لوحته" I ve got it !" وهل وصل في الحقيقة إلى نتيجة ؟ وهل توصل إلى العقار الشافي؟

أحضر له أخوه في اليوم التالي ،إضافة إلى عنوان الطبيب"بيتر تومبسون" في كلية طب "كامبري " أحدث دراسات قام بها ، وحاضر عنها في المؤتمرات . سلم كل هذه المعلومات إلى طبيبه المعالج ، وأكد عليه أن يتصل بأسرع ما يمكن مع الطبيب "تومبسون". وعده الطبيب بإرسال رسالة الكترونية e-mail .

حاول طوال الليل تفسير ما يحدث . لم يكن الطبيب بطل حلمه في المخبر، أو في العيادة، وهو على الأغلب في الطائرة ، وبعد ذلك في حلم قصير وجد نفسه يتمشى في معبر طويل بين أبواب مغلقة من الطرفين . نهاية الأمر وجده أخيراً يسبح .

ازدادت حدة ألمه في الصباح ، وهذا منعه من التفكير بما حلم في الليلة السابقة ، وحين خف ألمه بعد الظهيرة حاول أن يعطي حلمه نوعاً من التسلسل والمصداقية. لا بد أن الطبيب "تومبسون" في عطلة الآن.

جاء الطبيب المعالج المناوب لزيارته في المساء ، وأخبره أنه قد أرسل الرسالة بالبريد الإلكتروني e-mail إلى الدكتور "تومبسون"، وأضاف وهو يقف بين درفتي الباب: ربما سيفيدنا ذلك الأسترالي ، وينصحنا... لقد قرأت دراساته ، ووجدتها واعدة...

حلم من جديد بالطبيب ، وهو يسبح ، كانت الشمس قوية. دوى صوت المضخة من جديد. بعد برهة دخل الطبيب " تومبسون" إلى أحد الحانات ، وتبادل الحديث مع فتاة واقفة خلف البار . خرجا بعدها. أحاط الطبيب خصرها النحيل بذراعه . عبرا حديقة صغيرة ، دخلا بعدها إحدى البيوت ، وبينما كان الطبيب " تومبسون" ينزع قميصه، اندفع رجلان مسلحان إلى الغرفة ، أحدهما بمدية ، والآخر بمسدس .

لم يعرف بعد ذلك ماذا جرى للطبيب ، لأن حلمه توقف بشكل مفاجيء ، ولم يكن السبب مضخة السيروم ، بل ألمه المفاجئ .

تقرير XXIV N\345

درجة السرية :2ب
الرمز: عميل- منسق – ل ا م 19\ 7438
الاسم السري: غير موجود
نوع الخبر: غير مطلوب

لم أكن في يوم من الأيام مهتماً بهيكلية الوكالة ، ولا أعرفها حتى اليوم (خبرت بطريق الصدفة عن وجود عدة فئات من العاملين منذ سبع سنوات حين انتهيت من وظيفتي بوصفي عميلاً -مُخبراً ، وانتقلت إلى وظيفة عميل – منسق). لم أكن أعرف أحداً من مسؤولي قسمي ، ولا حتى من يقومون بعمل مشابه لعملي . كل هزة تعتريني نتيجة فضولي كانت تصطدم بشعور خفي يؤكد لي وقوفي في الجانب السليم ، وأنني أعمل في خدمة دولة ديمقراطية ، وأساعد بشكل مباشر في تطويرها ، وأنني أشكل نقطة ارتكاز ضرورية ضمن شبكة قوية .

كان عملي في الوكالة عبارة عن عمل موظف عادي أكثر من كونه نشاط عميل شبيه بما نراه في أفلام الإثارة المرتكزة على قصص تجسسية خارقة . ربما كل من يدخل في هذا السلك يقترب نفسياً بشكل أو بآخر من تلك التصورات ، وينهمك في بداية عمله بقراءة الكتب والقصص التي تتناول عمل الوكالات ، ونشاط عملائها، ومغامراتهم السرية.

استغرق مني هذا النشاط سنة كاملة ، كنت خلالها في منتهى التوتر والأرق المترافقين بصعوبة في النوم إضافة

إلى فقدان الشهية والاسهالات المتكررة . أتذكر كيف أني خرجت عن طوري ، وتصرفت بعصبية حين سألني أحد مستطلعي الرأي- أوقفني في الطريق- عن أمور عادية مثل عدد الكتب التي أقرؤها في الشهر، وعدد الساعات التي أقضيها في متابعة التلفاز، وإن كنت أزور السينما برفقة زوجتي أم وحدي. أمضيت أسبوعاً كاملاً ، وأنا أتحرى الأمر لكي أتأكد من أن هذا المستطلع لا يعمل لحساب وكالة استخبارات أجنبية .

بالرغم من أنكم سألتموني في البداية مرة أو مرتين عن حياتي العائلية ، لكنني بعد تلك السنين أعترف لكم أن زوجتي لاحظت بعض التغير في سلوكي . لم تتهمني بالطبع بالخيانة الزوجية ، ولكنها تحسست لأني لا أثق بها، و زاد تعلقي بأولادي خلال فترة الأزمة بيني وبينها، وبدأت أمنحهم المزيد من الوقت ، ولكن يجب الإشارة إلى أني لم أتجاوز في رعايتي الحدود التي يمكنها أن تؤثر سلباً على وظيفتي ، وتظهر سطحية في تأدية واجباتي المهنية ، أو هبوطاً في مستوى نشاطي في الوكالة. سأحاول أن أكون عاطفياً في حديثي . الحقيقة أن حبي لأولادي أغنى تجربتي ، ومنحني المزيد من التوازن في العمل ، وهذا بالضبط تسبب في إقناع زوجتي بصدق علاقتي معها، وساهم بشكل كبير في استمراريتها .

سأكتب بعض ملاحظاتي الخاصة حتى ولو كان هذا لا يدخل ضمن واجباتي . أول ملاحظة هي أن على الوكالة إصدار كتيب يحتوي على إرشادات يمكنها أن تساعد المبتدئين من العملاء على زيادة ثقتهم بأنفسهم ، وتزيد من توازنهم وتأقلمهم مع العمل الجديد . أعترف أنني لم

أستعمل في يوم من الأيام أية طريقة من طرق التدريب الذاتي مثل "اليوغا" ، ولكني أقصد بالذات هذا النوع من المساعدة.

من تقاريري السابقة (نوع: السنوي أو الميداني) يمكن استنتاج نوع النشاط الذي كنت أقوم به لخدمة الوطن والوكالة . لقد فهمت منذ البداية حين كنت "عميلاً- مخبراً"،أن الأقسام ، والفروع التي تقع في صدارة اهتمام الوكالة سوف تكون في المستقبل متعلقة بأسس تطور الاقتصاد. إن العمل في خدمة الوكالة جعلني نافعاً في مهمتي أباً لأني وضعت جميع معارفي التي كسبتها مع الزمن من خلال نشاطي عميلاً في خدمة ابني ، لاسيما حين أراد اختيار الفرع الذي سيدرسه . إن الفروع التي كانت محط اهتمام الوكالة في الماضي أصبحت في الوقت الحاضر مطلوبة ، وتدر إيراداً جيداً .

حين وصلت بعد عدة سنين إلى رتبة "عميل- منسق"، كانت أولى مهماتي هي كسب عميلين جديدين -مخبرين للوكالة . تمكنت من إنجاز المهمة بسرعة ، و كنت حريصاً أثناء أدائي لتلك المهمة توخي الحذر، والتقيد بالتعليمات بما فيها الحفاظ على السرية المطلقة، وكنت متأكداً أن العميلين اللذين اخترتهما ليكونا ضمن فريق عملي لا يعرف احدهما الآخر.

لم يكن في مجموعتي في أي وقت من الأوقات "عميل- منفذ". وعرفت عن وجود مثل هذا العميل من التعليمات رقم XXIV-U/384 التي تقول : في حال عدم وجود عميل -منفذ في مجموعتكم ، عليكم تنفيذ المهمات شخصياً ،أو بطريقة أخرى بسرية الرقم A1.

اكتشفت في هذه الحالة نقصاً ثانياً جديداً في عمل الوكالة يجب تداركه ، ولهذا أقترح أن يكون لكل قسم من الأقسام "عميل- منفذ " خاص به . يمكن أن يكون بالطبع أحد المخبرين العملاء أو متعاون . لا أعرف بالضبط إن كانت وكالتنا تتعامل مع هذا النوع من العملاء "النائمين".
أخيراً يأتي الاحتمال الثالث : أن يكون العميل – مندوباً من المركز ، وفي جميع الأحوال تكون المهمات المطلوبة منه قليلة نسبياً .

منحت عملائي الجدد حسب التعليمات رمز"كود" ، الأول مخبر- ل.أ .م/8001/19 و الثاني مخبر ل.ا.م 8002/19 . كانا نشيطين ، ويمكن الاعتماد عليهما ، ولهذا فإن "الكود" لم يؤثر على فعاليتهما، وأعتقد أنهما قاما بواجبهما على أتم وجه لأني على الدوام كنت أتلقى تقييماً لعملهما يقول : إن تقاريرهما حصلت على علامة +C . وكان مؤشر نشاطهم الستراتيجي متساوياً على الدوام . ربما تجدونني أكرر الكلام والسبب هو رغبتي أن يكون واضحا لكم أن العميل الأول 8001 ، والثاني 8002 كانا بنفس الأهمية عندي وعند الوكالة أيضاً .

أصبت بالدهشة حين وصلني من المركز أمر إداري يطلب مني التخلص من أحدهما، وما زاد من صعوبة هذه المهمة هو أني لا أملك أي مقاييس أو معايير تجعلني أختار أحدهما ليبقى وثيق الارتباط بعملي ، وأتخلى عن الأخر . كان الأمر واضحاً لي كما هو واضح لكم في المركز بسبب المبالغ المالية التي كانا يحصلان عليها عن طريقي . من المحتمل أن أحدهما من سيقع عليه الاختيار ، وبغرض الحصول على نفس الدخل سيقوم بإجراء

اتصالات مع وكالة أجنبية ، وذلك بالرغم من أنهما كانا عند الوكالة حتى ذلك الوقت في مستوى واحد من الأهمية ، ولكن الأمر سيختلف في المستقبل.

كان التخلص من العميل يبدو من هذا المنظور المالي حلاً مثالياً، وما أردت لفت انتباه المركز إليه هو أنه لم يجد الحل لانتقاء عميل- مخبر.إنني أستغرب تسلمي هذه المهمة التي يجب ألا تكون من ضمن صلاحياتي لا سيما أن قراراً من هذا النوع هو في غاية الأهمية .

غالباً ما يتكون بين" العميل –منسق " و"العميل –مخبر" خيط من العلاقة الحميمية، ولا شك أن خيطاً من هذا النوع قد نشأ بيني وبين العميل الذي يعمل تحت أمرتي ، ولا يزال يعمل .

لم أتسلم أية تعليمات أو إرشادات مسبقة بهذا الخصوص ، لهذا فإني في الحقيقة لم أعرف إن كان من المناسب لقسمي التخلص من العميل الأول أو الثاني ، وفي هذه الحالة كان الارتجال من طرفي يعتبر خطوة منطقية . ونظراً لعدم وجود" عميل – منفذ" ضمن ملاكي قررت تكليف العميلين –المخبرين بتنفيذ نفس المهمة ، ولكن كيف ؟.

سلمت الأول مهمة التخلص من الثاني ، وسلمت الثاني مهمة التخلص من الأول!

التزمت بالموضوعية أثناء إعطائي التعليمات ، وكلفت الاثنين بمهمات متشابهة بفارق زمني 27 دقيقة . كان عليهما البدء بتنفيذ المهمة في اليوم التالي على أبعد تقدير من الساعة العاشرة صباحاً . بالطبع لم يكن أحد منهما على علم أن الرجل الذي عليه التخلص منه كان يعمل في السابق

عميلاً- مخبراً، ولم يخطر ببال أحد منهما ، أنه تسلم مهمة متشابهة مع مهمة زميله ، ولو كانت متعاكسة .

أريد التأكيد هنا أنني أمنت التقيد الكامل بدرجة السرية - آ 1- بعد التخلص من "العميل –المخبر" . سحبت من كليهما جميع المستندات التي بحوزتهما تحت ذريعة تكليفهما في المستقبل بمهمات أخرى كما نبهتهما ألا يدونوا أية معلومات أو ملاحظات لها علاقة بالمهمة الجديدة التي كلفتهما بها ، وحرصت على ألا تضع الجهات الأمنية خلال التحقيق في مقتل أحدهما يدها على أية معلومات أو خيوط تشير إلى علاقتنا بهذه القضية.

أثناء تسلمهما التعليمات تأكدت أن العميل الأول والثاني في مستوى واحد ، وأن ردود فعلهما كانت متشابهة لدى تنفيذ ذلك النوع من المهمات التي لم يكلفا بها من قبل. لم يبد أي منهما دهشته أو استياءه من المهمة، ولم يعترضا على تنفيذها أو يرفضا فكرتها من أساسها. لقد توطدت علاقتي مع الأول والثاني في الأيام الأخيرة ، وأريد الاعتراف أنني أثناء إعطائي التعليمات شعرت بحزن ممزوج ببرودة د م لم أعرفها من قبل في عملي لأنها المرة الأولى التي أكلف فيها بتنفيذ مثل تلك المهام الصعبة . انتابني شعور الكاهن الجليل الذي كان عليه أن يختار ملكاً من بين ولديه اللذين يكن لهما نفس العاطفة والحب . نعم أعترف أنني خلال تنفيذي لتلك المهمة شعرت فجأة بإحساس شبيه بذلك الشعور الذي عرفته في محيط عائلتي حين تفقد عزيزاً.

الآن يأتي السبب الذي يدعوني إلى كتابة هذا التقرير السخيف . لقد بالغت في تقديري للعميل الأول والثاني ، وحدث معي ما يقال عن الأبوين بأنهما آخر من يعرف عن

الأولاد . لست متأكداً أن طاعتهما لتعليمات الوكالة ولرئيسهما المباشر المخبر – المنسق كاملة كما كان يبدو لي في السابق . لم يتصلا منذ عشر ساعات علماً أنني طلبت منهما أن يتصلا بي كل ست ساعات ليطلعنني كل منهما على حدة بآخر التطورات المتعلقة بتنفيذ المهمة .. لذا يراودني شك أنهما قد خرجا عن الطاعة ، ولم يعد بالإمكان الاعتماد عليهما في خدمة الوكالة.

إن ولدي كليهما العميل المخبر ل.ا.م. 19م/ 8001، والعميل الثاني ل.ا.م. 8002/19 يجلسان منذ ما يقارب الساعة أحدهما بجانب الأخر في سيارة تقف في كاراج السيارات الواقع تحت بيتي ، ولدي شك أنهما قررا تنفيذ مهمة لا علاقة لها بالمهمة التي زودتهما بها .

إنني أضع الوكالة أمام تحليلي للوضع الراهن لأنها على الأغلب قد فقدت هيكليتها وتفكك نظامها وعلى الأخص في القسم الواقع ضمن صلاحياتي بما فيه شخصي بالذات. ومن مشاهداتي لما يجري أتوقع أنه سيتم على الأغلب تصفية العميل –المنسق ل.ا.م. 7438/19 .

زيارة لبيت ابنتي

"أمي ، تبدين في غاية النحالة... *أوشكت* "ألجبيتا" أن تقول لوالدتها.

غمرت"ألجبيتا" فرحة كبيرة حين حضرت والدتها قبل ساعة لزيارتها دون إخبار مسبق، وذلك بالرغم من أنها كانت في مرات سابقة تأخذ عليها عدم إبلاغها عن زيارتها، ولو بالهاتف على الأقل ، كما سعدت برؤية والدتها بكل هذا التوازن الجسدي – النفسي ، ولهذا لم تجد سبباً يجعلها تخرب هذا اللقاء . لو كانت والدتها قد وصلت قبل ربع ساعة لما كانت وجدتها في البيت .

في الأشهر الأخيرة ، وبالتحديد منذ وفاة والدها، أخذت صحة والدتها تتراجع بشكل واضح ، وبدأت تظهر عليها بشكل مفاجيء أشكال مختلفة من الأعراض المرضية التي كانت حتى ذلك الوقت تتجنب الحديث عنها، و كانت على الأغلب تتهرب منها بذكاء . بدأت تهتز يداها ، وغزا الألم معدتها ، وتكور ظهرها، وبدا هذا التبدل ل"ألجبيتا" غير مفهوم، وهل يمكن للجسم أن ينهار بتلك السرعة ؛ وإضافة إلى التغير الجسدي حدث تغير في نفسيتها ، وانحازت في تفكيرها نحو المبالغة في الشك ، وفقدان الثقة بالآخرين ، إضافة إلى الحساسية المفرطة من تصرفاتهم وسرعة الحرد . كانت دائمة الشكوى ، ولم يكن هناك شيء يرضيها وأسوأ ما في الأمر أنها كانت مقتنعة وراضية عن كل تغير في نفسيتها وشكلها و حين كانت "ألجبيتا" تلفت

نظرها إلى خطأ ارتكبته كانت ترد عليها بثقة : إن من حقها أن تخطىء في هذا السن ، أو تنسى .

بالرغم من أن والدتها كانت تكبر والدها بعدة شهور ، إلا أنها لم تتوان في يوم من الأيام عن رعايته وتنفيذ رغباته طوال تلك السنين حتى وفاته . وبالرغم من أن مرض القلب أرسل والدي إلى التقاعد في سن مبكرة فإن والدتي تابعت العمل ، وتمكنت من رعايته على أحسن وجه. كانت تعينه في قضاء حاجاته على اختلاف أنواعها ، وكانت له سنداً في سيره وقعوده ، ولم ترفض له طلباً . كان يتسند إليها ، وهما في طريقهما إلى المسبح و إلى نادي الشطرنج - الذي لم تطأه قدماها من قبل- حيث كان يقضي هناك بعد ظهيرة كل سبت .

توفي والدي بشكل مفاجىء ، وكان وضعه الصحي خطراً لعدة سنين ، ولكنهم- "ألجبيتا"، ووالدتها، وحتى والدها بالذات- لم يشعروا في يوم من الأيام أن حياته مهددة بشكل مباشر ، وبالرغم من ذلك فقد جلس في كرسيه في أحد الأيام ، ولم ينهض منه . توقف عن الحياة .

حلمت "ألجبيتا" أن والدتها قد تغيرت حين جاءت لزيارتها اليوم ، وبدت لها في وضع شبيه بما كانت عليه قبل سنة أو عشر سنين . وعلى سؤالها عن أوضاعها أجابتها بشكل طبيعي - دون استعراض لمشكلاتها الصحية من ألم ، وضعف في الحركة كما تعودت أن تسمع "ألجبيتا" منها في السابق - وكل ما فعلته أنها لوحت بيدها إشارة منها على أن صحتها هي آخر ما يقلقها .

-هل نشرب القهوة يا أمي ؟ سألتها "ألجبيتا" ، ولم تنس أن تضيف " سأحضر لك قهوة خفيفة لا تضرك .

ابتسمت والدتها وقالت: إذا كانت خفيفة سأشرب قهوتك !
بينما كانت "ألجبيتا" تسكب الماء في الغلاية تسللت والدتها إلى الغرفة القريبة من المطبخ، و صرخت بعد دقيقة : إن الورد الذي أحضرته إليك في عيد الميلاد قد جف تماماً في الفاز الصيني .
- أعرف ذلك منذ أسبوع على الأقل . تنهدت "ألجبيتا" وهي تسحب فاز الكريستال الثقيل من الخزانة .
جلست والدتها في المقعد الوثير منتظرة عودتها . فجأة سمعت صوت تكسر بورسلان .
- الفاز ؟ صرخت والدتها متسائلة من الغرفة.
- لقد انتهى أجله ... ردت عليها "ألجبيتا" ، وأضافت كم يؤسفني فقدانه ، كنت أحبه.
هرعت والدتها بسرعة إلى المطبخ ، وسألتها: هل كنت تحبينه كثيراً ؟ ولم تنتظر الرد وأضافت : سأشتري لك في عيد الميلاد القادم فازاً جديداً.
- أمي ، بدأت "ألجبيتا" الحديث بعد أن جلستا في الغرفة، كنت أريد أن أشكرك على الفاز الجميل .
- الآن ؟ بعد أربعة شهور من أعياد الميلاد .
- لم أكن أعني ذلك . أردت أن أشكرك لأنك لم تغضبي لأني كسرته .
نظرت إليها والدتها باستغراب ، وقالت لها : وما الداعي إلى غضبي ؟ إنك لم تكسريه عن قصد، وغير ذلك ، إنه ملكك، ويمكنك كسر حاجاتك كما تشائين .
- أعرف يا أمي ، وبدا أن "ألجبيتا" تبحث عن الكلمات الصحيحة ... " لقد كنت في الأيام الأخيرة سريعة الغضب، وخفت أن تنزعجي مني لأني كسرت هديتك "

- أرجوك ... لنتحدث في أمر آخر ...لم تخبريني حتى الآن ، كيف وجدت عملك الجديد؟ سألتها والدتها .
في ظروف أخرى ، كانت "ألجبيتا" ستقول لها إن كل شيء على ما يرام ، ولكنها وجدت أن والدتها في هذا اليوم شديدة الفضول ، ومتحمسة لسماع أخبار جديدة ، لهذا أخذت تتحدث بشكل مفصل عن العلاقات المعقدة بين العنصر النسائي في الوظيفة التي يديرها رجل من الطبقة الراقية ، كما وجدت لذة في تكبير الأمور وتعظيمها.
كانت والدتها أثناء سماعها للحديث تعلق مستخدمة ملاحظات ساخرة، ولكنها لم تكن ملاحظات تدل على خبث مبطن.
- هناك أمر آخر... تابعت "ألجبيتا" الحديث من جديد . توجد في الطابق الأرضي غرفة من الزجاج يجلس فيها بواب العمارة ، وهم يدعوه في الوقت الحاضر" معلوماتي". هو رجل متقدم في السن ، وربما في سنك على الأغلب ، متقاعد ، يحاول تحسين وضعه المادي في العمل. إنه رجل لطيف ، ولكنه مزعج . تصوري أنه يدعوني على الدوام لشرب الكونياك ، ويقول لي إنه يملك بيتاً جميلاً يريدني أن أراه .. أعرف أني عانس ، ولست صغيرة ، ولكني لست كبيرة إلى هذا الحد؟
- الأمر لا علاقة له بالسن ، لأنه سيزعجك حتى ولو كنت في السابعة عشرة من عمرك . إنه يفعل ذلك لأنك تعجبيه بلا شك ، وليس بسبب سنك ... ردت عليها والدتها .
- إن حديثك يدغدغ أحاسيسي يا أمي ، ابتسمت "ألجبيتا" من شرح والدتها ، وشعرت بالفرح من تفتح تفكيرها وكلامها المقنع في هذا اليوم .

فجأة تذكرت والدتها أمراً : تصوري.... كنت في الثامنة عشرة من عمري ... حين التحقت بالعمل في البنك ، كان هناك " تيس" يسمعني كلمات إطراء طوال الوقت ، وهو يصغرني بخمس سنوات على الأغلب .

ابتسمت من جديد .

- كان ذلك الرجل العجوز يعمل حارساً ، ويسمونه اليوم" بودي كارد" .

حدقت "ألجبيتا" مستغربة في وجه والدتها وحدثت نفسها: تلك المرأة المسنة التي فقدت في السنوات الأخيرة اتصالها مع الحياة اليومية ، فجأة بدأت تتذكر أشياء من هذا النوع : حارس يسمى في هذه الأيام " بودي جارد" .

جلست والدتها أمامها ، وبدت كأنها شردت في تفكيرها ، ولم تعد تفكر في المكان فحسب بل تجاوزته لتحلق في الزمان، وكأن الحارس يقف أمامها ، و يدعوها إلى شرب الكونياك في إحدى الحانات الموجودة في الطرف المقابل من الشارع . أحست "ألجبيتا" فجأة بشعور مزعج ممزوج بالغيرة لأن والدتها تتذكر إنساناً آخر غير والدها .

- كنت في تلك الأثناء تعرفين والدي ، أليس كذلك؟ سألتها "ألجبيتا" ، وأحست في الوقت ذاته أنها المرة الأولى منذ وفاة والدها تسمعها تتحدث في موضوع آخر لا يتعلق بوالدها .

انتفضت والدتها بعد هذا السؤال ، وكأنها في لحظة واحدة عادت بأفكارها من الحلم البعيد لتستقر في الحاضر (من عشرات سنين ماضية لتجد نفسها في الحاضر). لم ترد على سؤال ابنتها ، ولكنها لطمت جبينها بيدها ، وشربت

بسرعة ما تبقى من القهوة في فنجانها ، نهضت من مكانها، ومشت لتصل إلى الباب ،ثم استدارت ، ونظرت إلى ابنتها وقالت لها.

- أخ ... من شيخوختي . لقد نسيت الموعد .

- مع من؟ سألتها ألجبيتا .

- مع أبيك .. بالطبع.

أوصل هذا الجواب السخيف "ألجبيتا" إلى حدود الانفجار، كيف يمكنها خلال ربع ساعة أن تتبدل بهذا الشكل وتعود إلى تخريفها ؟ أليس غريباً أن يختلط في تفكيرها الماضي مع الحاضر بتلك السرعة ، وكيف يمكنها قبل لحظات أن تكون في منتهى الحيوية، محبة للحياة، و تعود لتتحول بسرعة إلى الجنون ، وها هي تحضر نفسها للقاء والدي الذي مضى على وفاته ثلاثة أرباع السنة؟

شعرت "ألجبيتا" أنها تكره ذلك القسم المريض من والدتها . أرادت أن تصرخ بتلك العجوز التي بدأت في المعبر بارتداء معطفها الربيعي ، وتقول لها كلمات مزعجة ، أرادت أن تجرحها ، ولكنها لم تجد في تلك اللحظة الكلمات المناسبة .

رن جرس الهاتف في المطبخ في تلك اللحظة ، ولكن "ألجبيتا" لم تتجاوب . أطلت والدتها من خلف الباب ، وصرخت بها:

- لديك مكالمة .

تحركت "ألجبيتا" ببطء ، ولكن فكرة الرغبة في قول كلام مؤذ لوالدتها لم تفارقها، وكانت متأكدة أن ردها على الهاتف في تلك اللحظة سوف يبدل تفكيرها الغاضب إلى نوع من الأسف والعطف عليها .

- أمي إنك في الحقيقة في غاية النحول " ربما نطقت "ألجبيتا" بتلك الكلمات.

- طبعاً هذا هو اسمي ، وأظن أنك تعرف الناس الذين تخاطبهم .... ردت "ألجبيتا" على الهاتف بعصبية ، وكانت لاتزال تحت تأثير حنقها من والدتها.

فجأة تبخرت قوتها ، اتكأت بكتفها إلى طرف الخزنة ، ولم تعد تحتمل الوقوف ، لهذا ارتمت بسرعة على الكنبة القريبة. بدأ الشرطي في الطرف الثاني من الخط يشرح لها ببطء ، وأناة سبب اتصاله بها ،وأخبرها أن جيران والدتها لاحظوا اليوم أن باب بيتها مفتوح على غير عادة ، وحين دخلوا إلى البيت ، وجدوها مرمية على الأرض . أخبرها الشرطي أن الأمر على الأكثر يتعلق بجريمة ، وأن المجرم قد ضربها على رأسها ب "فاز" ثقيل.

- ألو.. من فضلكم هل تسمعونني ؟ سأل الشرطي ، وأضاف : هل تفهمون ما أقول؟

- أنا من أهدتها الفاز في عيد الميلاد ... ردت عليه"ألجبيتا" ، وبدأت بالبكاء .

زيارة الأم

استيقظ بعد حلم قصير مزعج كانت فيه "مارتا" ترتقي السلالم متجهة نحوه في جو يكتنفه الغموض . كانا محاطين بهالة ضبابية كثيفة جعلت من الصعب معرفة مكانهما، وفيما إذا كانا في الطبيعة أو في أحد البيوت . َحلم أنه يقف في نهاية السلم ينتظر وصولها . أراد أن يتابع طريقه ، ولكن صراخها المفاجئ أوقفه ، ومنعه من الحركة . لم تكن بعيدة ، ولكن الدرجات الفاصلة بينهما كانت في ازدياد مستمر، ولهذا فإنها لم تقترب منه .

بقي لحظة في سريره منزعجاً من الحلم لا سيما أنه لم يتعرف إلى نهايته ، ولم تتحقق رغبته في الاقتراب منها، وأدرك في الحال أن عليه المشاركة بشكل أكبر في استعادتها من المشفى إلى البيت لأن حالتها الصحية تحسنت بشكل واضح .

ليس من السهل تحديد التشخيص حين تكون الهلوسة والأوهام في مقدمة الأعراض . إنه مجرد صراع داخلي هدفه تغيير الواقع . يمكن لطبيب الداخلية القول إن مريضه مصاب بقرحة في معدته ، وأن الجراحة ستفيده ، ولكن هذا التعميم لا يصح في حالة وجود مرض نفسي يتعذر تقديره والتنبؤ بعواقبه، ولهذا فإن التحسن الذي يطرأ على المريض النفسي يصعب قياسه .

أعطت " مارتا" في الأسابيع الأخيرة انطباعاً جيداً ، وعادت طبيعية كما كانت من قبل . لهذا قرر عدم التراجع عن طلبه بإخراجها أمام رئيس القسم الذي تهرب في الأيام الماضية من الخوض معه في الحديث عن حالتها الصحية .

نهض من سريره ، وارتدى ثيابه . اعتنت به " مارتا" طوال تلك السنين ، وعودته على روتين معين منذ الصباح، فهي التي تحضر له الفطور أثناء قيامه بقضاء حاجياته الصباحية في الحمام . كانا يتناولان الفطور معاً ، وبعد الانتهاء تسارع إلى إحضار قميصه وبدلة عمله الأنيقة . حين كانت ابنتهما طفلة صغيرة كانت "مارتا" تجهزها ليصطحبها معه إلى المدرسة ، وحين بلغت "إيما" الخامسة عشرة انتقلت لتدرس الموسيقى في مدينة مجاورة، وكانت تتردد إلى البيت في "الويك إند".

دأبت "مارتا" في السنوات الأخيرة على الاهتمام بمظهره الخارجي ، وكان ذلك أمراً ضرورياً سيما أنه موظف مرموق ، ومن في مركزه لا يمكنه الظهور في المناسبات والاجتماعات بلباس "مجعوك" . كان عليها اختيار الثياب التي تليق به وبمركزه لأن لباساً "مجعوكاً" يمكن أن يكون سبباً في انخفاض ثقة الزبائن به وفقدان الثقة من ثم يترجم إلى خسارة مالية وخسارة عروض تجارية قد تصل إلى الملايين .

لقد أصبحت " مارتا " صانعة شكله (إيماج-ميكر) ، لهذا كانت تتابع آخر صرعات الموضة الرجالية ، وتختار منها ما يتناسب مع المناسبات التي سيظهر فيها .

إنه الآن وحيد ، ولا يوجد من يقدم له النصيحة ، علماً أن تحضير القهوة وسكب اللبن عليها لم يسبب له مشكلة حتى الآن . المشكلة الأساسية كانت في بقائه وعيشه بدون "مارتا". كان يعشقها ، وهذا يعني أنه تعودها ، وتعود وجودها إلى جانبه .

كانت الساعة تقارب الثامنة صباحاً على مؤشر الوقت في لوحة التحكم حين دور محرك السيارة . سيتأخر من جديد عن العمل . لقد كان طوال تلك السنين يطلب من الموظفين العاملين تحت إمرته أن يلتزموا الدقة في مواعيدهم ، وكان الاجتماع الصباحي يبدأ في الثامنة والربع تماماً مهما بلغت سماكة الجليد على الطرقات . لقد تبدل وقت الاجتماع في الأشهر الأخيرة ، وأصبح في الثامنة والنصف صباحاً . لقد كان على يقين بأن شفاء "مارتا"السريع وعودتها إلى البيت سيكون في صالح الشركة أيضاً .

انتبه أن سكرتيرته قد بدلت تسريحة شعرها حين أعطاها بعض الأوامر . لم تكن تستهويه في الأصل وجوه الفتيات بقدر ما يستهويه شعرهم وتسريحته . حقيقة الأمر أن تلك الصبية أخذت في الأسابيع الأخيرة ترتدي ثياباً أكثر إثارة ، أو ربما خيل إليه ذلك . أغلق باب مكتبه ، وبدأ يفكر فيما إذا كانت قد ارتدت من قبل تنورة قصيرة ، وبلوزة ضيقة تلتصق بجسمها ، وتظهر مفاتنها . ربما تفكر في استدراجه و إغرائه لأنها تعرف أن " مارتا" في المتشفى . لم يرغب الاسترسال في تلك الأفكار والشكوك ، ولكنه وضع أمامه فرضية استبدالها في اللحظة التي يتأكد من صحة شكوكه .

سار الاجتماع الصباحي كما جرت العادة . أراد رؤساء الدوائر تخفيف أعبائهم في العمل، ولهذا اقترحوا تحويل بعض مهامهم إلى دوائر أخرى . تركهم ... ليرى كيف سيتهم أحدهم الآخر بالتقصير، ولكنه في النهاية قرر أن يترك الأمور على حالها مع زيادة المراقبة على

النوعيـة، وهـذا يعنـي أن الأقسـام سـوف تراقـب أحـدها الأخرى .

بعد انتهاء الاجتماع الصباحي جلس يراقب أكتاف زملائه وهم يغادرون قاعة الاجتماع . لم يتمكن أحد منهم كسب صداقته ، إنهم عبارة عن موظفين يعملون تحت إمرته، وهو على ثقة من أنهم سينفذون أوامره ، ومع ذلك لم يكن بوسعه الوثوق بهم أصدقاء . لو كان لديه صديق واحد بينهم لكانت حياته في غياب " مارتا" أقل وطأة وأسهل وقعاً ، وربما كان سيتحمل وحدته في البيت بشكل أفضل. ولكن من ناحية أخرى ربما غياب الصديق سيكون لصالح" مارتا" ، ويجعله يشعر أكثر بغيابها، ويحثه على فعل المستحيل لاسترجاعها إلى البيت بأسرع وقت ، لالتكون بجانبه فقط ، ولكن لاعتقاده الراسخ بأنها في الوقت الحاضر قد تعافت من محنتها .

اتصل بالمشفى ليأخذ موعداً مع رئيس القسم ، ولكن الصوت النسائي في الطرف الثاني من الخط أخبره أن رئيس القسم في إجازة ، وسيعود بعد أسبوع ، لهذا لم يجد أمامه سوى طلب مقابلة طبيبها المعالج اليوم ، وعلى الأكثر في الغد ، ليسأله عن تفاصيل مرض "مارتا" ، وربما سيستعير منه بعض الكتب ليتمكن في الأسبوع القادم عند لقاء رئيس القسم أن يتناقش معه في أمرها ، ويقدم له البراهين التي تثبت شفاء زوجته .

تناول طعام الغداء في المطعم الذي بدأ يحبه في الأسابيع الأخيرة . بعد ذهاب "مارتا"إلى المشفى أخذ يبحث عن مطعم يقدم وجبات قريبة من طعام البيت . لقد تعود الخروج مع " مارتا" في المساء لتناول العشاء ، وكانا

يبحثان على الدوام عن مطاعم تقدم طعاماً مميزاً غريباً مثل الأكل المكسيكي أو الإيطالي أو التايواني ،أو العربي . اختار اليوم طعاماً شبيهاً بما تحضره "مارتا" في البيت ....حساء الخضار المعلبة المطبوخة مع الفطر. نهاية الأمر وجد مطعماً متواضعاً في شارع جانبي علقت على جدرانه لوحات من القرن الماضي ، وكان ديكوره وأساسه من طاولات وكراسي تراعي الأسلوب الريفي . لو كانت "مارتا " معي لكانت انتقدت هذا الذوق ، ووصفته بالغريب، وهي بالطبع محقة في انتقادها ، وربما كانت لتقول له إن رجلاً في مركزك وممثلاً لشركة مرموقة يجب عليه تحاشي الظهور في مثل هذه المطاعم ،لكنه كان يطيب خاطرها بابتسامة ونظرة لطيفة .

يمكن القول إن "مارتا" إنسانة شديدة الاهتمام ببيتها وبنظافته إلى حدود الكمال ، وربما كان حرصها الشديد على الدقة في المواعيد سبباً غير مباشر في وصولها إلى هذه الحالة النفسية . كانت تعيش في حالة من الضغط المستمر من جراء رعايتها الدائمة له والاهتمام به . سيحاول في المستقبل أن يساعدها على تغيير أسلوبها، وجعلها تهتم بالأشياء الأساسية فقط ، وترك الأمور البسيطة التي يمكنه أن يسويها بنفسه. لا يمكنهما أن يكونا من الصباح حتى المساء ممثلين للشركة ، ومن حقهما أن ينعما بحريتهما، ويعيشا حياة زوجين عاديين يحب أحدهما الآخر.

لقد تمكن كوب القهوة الذي شربه بعد الظهيرة من إبقائه صاحياً في الوقت الذي يتمتع غيره من الناس بقيلولته . غرق من جديد في العمل، ولكنه أحس بعد ساعة بالذنب

لأنه لم يفكر ب" مارتا" ، وهذا الأمر شتت أفكاره ، وجعله عاجزاً عن متابعة العمل . إن ابتعاده عن "مارتا" وسجنها- هكذا سماه للمرة الأولى -في الكلينيك تسبب في تهديد حياته هو الآخر ، وتأكد أنه سيضطر إلى مراجعة طبيب الأمراض النفسية إن لم ينته هذا الوضع بأسرع وقت. ضحك من تعبير أحدث علاقة حب عصرية أو رومانسية زوجية ، وليكون صادقاً في حبه ل "مارتا" عليه أن يشاركها الإقامة في مشفى الأمراض العقلية، ولكن هذا الأمر شبه مستحيل . سيحاول إخراجها من المشفى، ولو اضطره ذلك إلى توقيع تعهد REVERS ، وفي حال أنها ستحتاج إلى عناية طبية فإنه سيؤمن لها ذلك بواسطة طبيب خاص وربما لن يكون ذلك ضرورياً لأن " مارتا" تبدو في صحة جيدة ومتوازنة.

حاول الاتصال بابنته قبل مغادرته العمل . المسكينة هي الأخرى لم تتحمل فراق والدتها وإقامتها الطويلة في المشفى ، ولهذا قللت من زيارة البيت في المدة الأخيرة، وربما تركت أمر مرض والدتها سراً ، ولم تبح به لأحد من صديقاتها . لا شيء أصعب على الفتاة في سن العشرين من وجود والدتها في مشفى الأمراض العقلية.

-ردت عليه السكرتيرة الآليه :"إيما" في المدرسة .

كان الطريق مزدحماً بعد الظهيرة ، وكانت سيارته تزحف كالسلحفاة في طريقها إلى الكلينيك. فكر في إخبار" مارتا" مباشرة بأنه سيفعل المستحيل لإخراجها من الكلينيك، ولكنه في النهاية فضل الانتظار أسبوعاً آخر ليتدارس الأمر مع رئيس القسم . لم يرغب أن يجعلها تعيش على الأمل . كان يعرف أنها تتلهف للعودة إلى البيت

بأسرع وقت ، وهذا أمر منطقي ، ولكن ماذا لو أن رئيس القسم أصر على إجراء اختبارات جديدة؟

أوقف السيارة في البارك الصغير أمام المشفى ، وحين خرج من السيارة ، وجه نظره مباشرة إلى نافذة " مارتا" عله يلمحها . لقد بكر اليوم في مجيئه ، ولذا السبب لم تكن هناك . استغرب حين وجد باب المشفى مفتوحاً ، ولم يلمح أي أثر لموظف الاستعلامات كما أنه لم يلتق أحداً في المعبر المؤدي إلى القسم الذي تقيم فيه "مارتا" . وزاد استغرابه حين وجد باب القسم مفتوحاً على مصراعيه ، وحين دور مسكة باب غرفة"مارتا" عبرت رأسه فكرة تهريبها من المشفى دون أن يجد من يمنعه .

قفزت " مارتا " من مقعدها حين وقف بين درفتي الباب ، وهرعت ، وحضنته بين ذراعيها . استغرق عناقهما مدة أطول من أي مرة سابقة ، وكذلك كانت القبلة طويلة أكثر من سابقاتها . أحس أن عالمه السفلي يطلب منه استعادتها في أقرب وقت إلى البيت . سألته عن الجديد ، وأخبرته أنها اليوم تشعر بالضجر أكثر من أي وقت مضى، وأن ضجرها وصل إلى أعلى مراحله ، وأضافت أنها لن تكون المرأة الأولى التي ستفقد عقلها في مشفى الأمراض العقلية . هز رأسه، وشعر بسعادة كبيرة تغمره لأن أجوبة من هذا النوع تدل بشكل واضح على أنها قد تعافت ، وهي الآن بصحة جيدة.

كانت غرفة" مارتا" من أفضل الغرف في الكلينيك ، وأكثرها وساعة وتجهيزاً، وكان سعر الإقامة فيها بالطبع يتناسب مع موجوداتها . كانت غرفة مفردة (سنكل) بحمام خاص وإطلالة جميلة على الحدائق المحيطة .

قرع أحدهم باب الغرفة حين كان منشغلاً في الحمام بغسل العنب الذي كانت تحبه " مارتا" ، والذي كان قد اشتراه من البقالية الحديثة بالقرب من المشفى .

- مرحباً يا أمي ... ندهت" إيما" فرحة برؤية والدتها .

- إيما ، ما أسعدني ... ردت عليها والدتها ، وأضافت : هيا ادخلي ، وأغلقي الباب .

- كيف تشعرين يا أمي ؟ تبدين فرحة اليوم .

- ما أسعدني لأننا معاً من جديد .

- وأنا أيضاً سعيدة .

- والدك يغسل العنب الذي أحضره لي في الحمام ...ما رأيك ، ستأكلين منه ، أليس كذلك؟

- عن أي عنب وأي والد تتحدثين يا أمي ؟ وما هذا الذي أسمعه منك؟ أما آن الأوان لننتهي من هذه التخيلات ؟ توقفي عن إحضار والدي ، ولا تعودي إلى رسم صورته إلى جانبك من جديد ، لأنه بين أيدي الرب منذ نصف سنة .

أشعل لي ناري light my fire

تعرفين أني سأخدعك
تعرفين أني سأكذب عليك
إن قلت لك
تعالي يا طفلتي
وأشعلي ناري

قبل أن يدخل الصالة لينزع الستائر السميكة وضع كتاباً مغلفاً بورق هدايا أخضر أمام باب غرفة النوم وفي اللحظة التي وضع فيها الستائر فوق الكتاب سمع أصواتاً رتيبة اختلطت فيها تأوهات أنثوية مع أنات ذكرية تنبض بالنشوة، آتية عبر باب غرفة نومه المغلق .

أضاف بعد لحظات إلى الستائر ثلاث رشقات كانت تغطي الأرائك في غرفة الجلوس ، ثم دخل بهدوء غرفة مكتبه ، وأحضر بعض المجلات والجرائد ، وبعد لحظات وجد أمام الباب كومة كبيرة مؤلفة من عشرات الكتب . كان قد سمع قبل ذلك ملاحظات عديدة تدعوه إلى التخلص منها لأنها لا تفيده في شيء.

" لقد وجدت لها وظيفة" حدث نفسه.

عاد إلى المطبخ ، وأخرج زجاجة " تيكيلا" مفتوحة من الثلاجة (نوع من الخمر المكسيكي) . أخذ بلعة كبيرة ، ثم فتح خزانة جدارية وأخرج منها زجاجتي "كونياك" ، وحين وصل إلى عتبة الباب لمح ستارة وردية تغطي خزانة جدارية أخرى شدها بنترة سريعة من يده، ونسي للحظات أن عليه توخي الحذر ، وعدم إحداث ضجيج في البيت.

" وهما أيضاً يحدثان ضجيجاً " ... حدث نفسه.، وهو يسمع تأوهات لا تحسب حساباً لأحد آتية من غرفة النوم .

لف الستارة حول مسكة الباب ، وفتح بعد ذلك إحدى زجاجتي الكونياك ، وسكبها على الستارة، وخطر بباله أن رائحة الكحول سوف تنتشر بسرعة في أرجاء البيت ، لهذا أسرع في تحضيراته ، ودس الجرائد بين الأغطية القماشية.

أراد في البداية إشعال الستارة ، ولهذا سكب عليها زجاجة الكونياك، وانحنى فوقها ، وأشعل عود ثقاب ورماه عليها. بدأت تشتعل بسرعة ، و ارتفع أمامه لهيب نار أزرق ، انتفض بسرعة، وابتعد من مكانه ، وأحس أ ن النار قد لامست نهايات أصابعه.

استدار ، واتجه نحو باب البيت ، وفي اللحظة التي استعد فيها لتدوير مسكته وقعت عيناه على وسادة قطنية موضوعة فوق كرسي خيزران بجانب الباب ، حمل الوسادة ، ورماها فوق كومة الكتب والجرائد التي امتدت إليها هي الأخرى ألسنة اللهب ، ولم يتمكن من البحث عن أشياء أخرى ليرميها فوق النار لأن الدخان كان قد ملأ الغرفة، وهذا منعه من الاقتراب .

أجاب "تيودور" على سؤال "أغاثا" الأخير ، وبهذا تكون زيارتها من الناحية العملية قد شارفت على نهايتها .

" سألتقط لك صورة بهذه الوضعية " قالت وهي تثبت الميكروفون على الطاولة ، وتسحب بسرعة البرق آلة التصوير من حقيبتها .

نظر إليها " تيودور " بهدوء ، وابتسم لها . كان يمسك لفافة تبغ في إحدى يديه ، وفي الثانية ولاعته التي كان

لهبها يتصاعد متراقصاً أمام عينيه . لم يساوره أدنى شك في أن تلك الأنثى النشيطة التي جاءته بغرض الحصول على سبق صحفي ، ستتمدد عارية بعد نصف ساعة على الأكثر بين حوامل لوحاته المنتشرة في الغرفة.
هي بين لوحاته ، وهو بين فخذيها.

إلا أن أفكار "تيودور" لم تتوقف عند هذا الحد ، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك لأنه بدأ يفكر فيما سيحصل لهما ، وماذا بعد ذلك . من المؤكد أنه لم يرغب في الوصول بعملية المضاجعة الوشيكة بين رسام محترف وصحفية إلى علاقة طويلة الأمد . عانس مشكوك في مستقبلها ، وعجوز متصاب من أصحاب السوابق ... يا له من ثنائي . لحسن الحظ ستبدأ حفلة التوقيع بعد ساعتين ، وسيضطران إلى مغادرة المرسم ، ولن يجدا ما يكفي من الوقت لتجهيز عشاء في جو رومانسي يتابعان فيه حركة النجوم، كما أنه لن يجد الوقت الكافي ليضرب بريشته ألواناً صاخبة على جسدها العاري، أو ليتفجر بالضحك من رؤيتها مرتدية برنص حمامه الواسع . باختصار كبير سوف يشدها من يدها، ويخرجان معاً إلى الحفلة قبل ذلك .

" تصنع الجدية ، وتخلص من ابتسامتك الساخرة.
أيقظته كلمات "أغاثا"

دارت من حوله باحثة عن الزاوية المناسبة لإبراز حاجبيه الكثيفين ولحيته البيضاء في اللقطة بأكثر ما يمكن من الحرفية -الشيطنة- .

سحب نفساً عميقاً من لفافته ، وحبس الدخان برهة في صدره ثم أخذ ينفثه برتابة وتناسق ليخرج من بين شفتيه

على شكل دوائر مغلقة تتراقص الواحدة خلف مثيلتها في مواجهة العدسة .

- إن النار تسحرني ، لهب يتراقص ، وشرارات تتطاير بين دخان شفاف . كان يتكلم ، وفي الوقت ذاته لم يتوقف عن كبس ولاعته ...

أخذت له"أغاثا" عدة لقطات .

- كم أتمنى أن تكون لي سلطة " نيرون" الذي أحرق مدينة بكاملها ، وحول أنقاضها إلى عمل فني . شيطان الإلهام في مواجهة الحياة المملة دون أي اكتراث بأحزان البشر . استنباط الجمال من الخراب .

دس ولاعته في جيب سرواله .

- ألست إطفائياً ؟ سألته وهي توضب آلة التصوير.

- بالطبع..

- لن أشير إلى ذلك في المقالة ... ردت وهي تبتسم.

قبل ذلك تمنى العودة إلى بيت فارغ ، والآن وجد نفسه راغباً في ملاقاتهما .

حين دخل إلى البيت عرف مباشرة أنهما في غرفة النوم ، أنهما لم ينتهيا بعد بالرغم أنه لم يسمع آهاتهما منذ دخوله .

كان جو البيت معبأً برائحة الجنس النافذة ، وكأن الأشياء كانت تصرخ : انتبه .. خيانة! الآن بالذات ! زوجتك في السرير مع عشيقها.

هؤلاء الاثنان بقيا في غرفة النوم ، وهذا شجعه ليتخذ قراره النهائي.

هل قررت ؟ أكثر من السابق ! جدث نفسه. لم يتمكنا من عه في زحمة انشغالهما خلف الباب المغلق.
جلس برهة على الكنبة في مدخل البيت ، ووجد نظره يتحول بسرعة نحو الطاولة لتي كان عليها كتاب مغلف بورق زينة أخضر . لقد اشترى لها هدية قبل ساعة ، وهذا أشعره بالخجل من نفسه.
تنهد بعمق ، ودور رأسه تعبير ا عن ندمه على فعلته . كان عليه أن يعاقبهما في البداية، وبعدها يلتفت إلى نفسه . نظر من حوله ، وفكر في الطريقة.
تلك الستائر الثقيلة ستحترق وتحرقهما معها .

كانا يستلقيان تحت غطاء من الصوف ، وجدته "أغاثا" ينضح برائحة العت المزمن ، إلا أنه كان خالياً من رائحة الألوان . أشعلت لفافة تبغ لتغطي برائحة دخانها رائحة الغطاء . رائحة كريهة في مواجهة رائحة كريهة أخرى . "المسمار لا يكسره سوى مسمار أقوى". تخيلت النيكوتين وهو يدخل رئتيها، ويعبر منها إلى الدورة الدموية ليصل في نهاية المطاف إلى تلا فيف دماغها . لقد أشعرتها تلك الصورة بالهدوء .

حين أحست أن "تيودور" قد هم بإخراج سيكارة من علبته ، مدت له علبتها ولكنه دفع يدها جانباً ، ومد يده إلى الولاعة.

- إن رؤية لهب النار ، هو أكثر ما يثيرني في عملية التدخين . راقبي تلك الألوان .. البرتقالي يتناوب مع الأحمر، ويتداخل بعدها مع الأصفر ...الآن أزرق . كان هناك الأزرق ، هل ترينه ؟

لم يحدث اللهب الخارج من الولاعة وقعاً مماثلاً في "أغاثا" ، أو أي شعور مسل آخر. إن الذي يمدح تلك الصور هو فنان تشكيلي تتلون لوحاته في غالبيتها بلون النار . خطرت ببالها من جديد فكرة تشغيل المسجلة . لابد أن ذلك سيحرض خياله ، ولكن عليها إن أرادت ذلك أن تنسحب عارية من تحت الغطاء ، وهذا سيشعرها بالحرج . من المبكر عليه رؤية مؤخرتها التي ربما ستبدو كبيرة حسب معايير الفنية ، مهلاً عليه .... لم يحن الوقت بعد .

- هل زرت الطبيب ؟ سألته

لم يفهم "تيودور" سؤالها ، ولهذا نظر في وجهها مستغرباً .

- بسبب الخوف من النار (pyromanie) . إنه تشخيص لمرض نفسي ، أضافت .

فهم قصدها ، ولكنه خشي أن يكون سبب سؤالها آتياً من تقييمها لضعفه الجنسي ، أو ربما لفشله في إرضائها، وإيصالها إلى الذروة . ضحك في النهاية من تلك الفكرة.

- ماذا سنفعل الآن ، ألن نذهب إلى حفلة التوقيع ، أو إنك ستشعلين النار في جسدي مرة ثانية ؟ سألها ، وهو يضحك .

- لا أعرف ردت عليه بحدة .

خنق لفافة تبغه في الصحن ...مد يده وشدها إليه ، وقال : تعالي ياصغيرتي ، وأشعلي ناري من جديد . com on .baby ,light my fire

قبل ذلك كان يتمشى ببطء ، وكلما كان يقترب أكثر من البيت كان يزيد من سرعته . لقد أخذا فرصتهما، و منحهما

ما يكفي من الوقت لتفريغ شهوتهما، ربما يكونان قد انتهيا من مغامرتهما ، وربما يكون ذلك الشاب قد غادر البيت وحده ، أو إنهما خرجا معاً ، وإن كانا قد بقيا في البيت فتلك غلطتهما .

أوشك على الركض في النهاية ، و يحدوه هدف واحد هو تنفيذ ما قرره . عبر الشارع ، ولم ينتبه أن سيارة كادت تصدمه ، وأن السائق تمكن في اللحظة الأخيرة من استخدام المكابح، والسبب أن صوراً من المعرض كانت تتقاطع أمام عينيه وتشغل تفكيره . مقعد يحترق ... يجلس عليه أحد المشردين ، ورجل يهدي امرأة باقة مشتعلة من النار بدلاً من الزهور. فراشة تطير هاربة من حضن زهرة البنفسج بعد أن بدأ اللهب بحرق جناحيها . امرأة يحترق شعرها أثناء جلوسها في مقعد وثير أخضر. كان يفكر باستمرار في تلك اللوحة المائية. إن الشبه يكاد لا يصدق، ربما تكون زوجته عن حق. زوجته تحترق في اللهب .

مشيا في مساء المدينة . كانت ترغب أن يمسك "تيودور" يدها ، أو يحيط خصرها بذراعه ، لكن شيئاً من هذا لم يحدث . مشى أمامها ، وعلى بعد عدة خطوات منها ، وكأنه كان يريد أن يعلن للجميع من حوله أن تلك المرأة تشكل عبئاً ثقيلاً عليه ، أو أنها لا تمت إليه بأية صلة .

كان يمشي بخطوات طويلة ، وهذا جعل " أغاثا" مضطرة في بعض الأحيان إلى الركض لكي تحافظ على مسافة معقولة منه . بدا الأمر مهيناً. ولكنها حدثت نفسها : لا بأس سينتهي كل شيء . باختصار كان مسرعاً للوصول إلى المعرض، لأن التوقيع سيجري بعد ربع ساعة .

نهاية الأمر لقد تمتعا ، هو أكثر ، وهي أقل ، وانتهى الأمر .

قبل ذلك ربما كان تخيل أنه قد وصل إلى الغاليري بالخطأ، ولكنه الآن ، وبعد خروجه منها لم يعد لديه أدنى شك في أن القدر الذي يدير الحياة ،- حياته ، وحياتها ، وحياة ذلك الشاب- قد أوصله إلى الغاليري . لقد توضحت له الأشياء في المعرض. إنه لم يتخذ هذا القرار ، ولكنه قبل به.
أدار ظهره من جديد عند باب الغاليري راغباً في العودة . النار ، النار، النار ، لقد اجتمعت عنده كل الصور في حريق واحد. سار ببطء باتجاه بيته في المساء . لم يفكر في شيء محدد، لكن مئات الأفكار كانت تتصارع في رأسه . تذكر أنه قد قرأ في الماضي أن النار تطهر الأشياء ، وهذا ما يحتاجه بالضبط .... أن يطهر نفسه ، ويتخلص من الوساخة التي وصل إليها في هذا اليوم .

دخلا الغاليري . كان النادل أول من استقبلهما، عرض عليهما النبيذ . كان المكان يعج بالزوار . لقد نسي " تيودور" أنه جاء برفقة " أغاثا" . وجد هناك العديد من أصدقائه الذين لم يلتق بهم منذ سنوات، وبعضهم ممن لم يشعر نحوهم بصداقة حقيقية، وبعضهم الآخر ربما كانوا أصدقاء له منذ سنوات ، ولكنه لم يعد يتمكن من وضع الاسم الصحيح على الوجه ، أو الوجه على الاسم الصحيح.
لقد نبهوه على أن أحد الحاضرين قد جاء خصيصاً من فرنسا لحضور حفلة التوقيع ، ومع ذلك لم تكن تعابير

وجهه تدل على أنه استوعب الفكرة ، وهل يعبر الناس عن الشكر بتلك الصورة .

- أرى أنك لا زلت محاصراً بالنار ... قال له أحدهم، وهو يمد يده مصافحاً .

-النار خادم مطيع ، وسيد رديء .. أضاف آخر..

أنهى "تيودور" كأس النبيذ . إنه يحب التحدث عن النار ، إلا أنه لم يعرف في تلك اللحظة ماذا عليه أن يقول .

شاهد "أغاثا" تقترب منه .

أحدهم الثالث ، أوالرابع علق، وهو يبتسم : في العلاقة بين "تيودور"(كان الحديث عن علاقة ، لهذا شدت "أغاثا" جسمها كالوتر) والنار من الصعب معرفة من هو السيد بينهما، ومن هو الخادم . إن "تيودور" هو الخادم على الأكثر لأنه يوظفها ، ويستغلها دون شفقة في لوحاته. يكفي أن تنظروا من حولكم لتجدوا النار مستخدمة بآلاف الطرق .

- واحد وخمسون طريقة.. صحح له "تيودور" ، يحتوي المعرض على سبع وخمسين لوحة ، وفي ست لوحات فقط لم يستعمل النار.

- ست لوحات ؟ ... إنها اللوحات المعروضة في الخلف في الزاوية.عملان يدرسان بقايا مدينة مندثرة ، وأربعة أعمال تدرس الدخان، ولا علاقة لها بالنار. شرح بشكل ساخر أحد الحاضرين . وسُمع في الحال قهقهة رجالية .

ابتعدت " أغاثا" بهدوء عن المجموعة، وانتقلت بخطواتها الصغيرة من لوحة لأخرى. كانت هناك لوحة تصور احتراق الصحف ، وبمحاذاتها لوحة رسم فيها "تيودور" مراحل احتراق مجلة ملونة. فكرت "أغاثا":

يمكنه رسم حرق الكتب، أو دليل الهاتف، أو كتب الدعاية ، وربما سيسلمونه في المطبعة شاكرين الكثير من إنتاجهم المكدس لحرقه ، وبهذا كان سيرسم مجموعة حرائق المطبوعات .

قبل ذلك لم يكن من المهتمين بالفنون الجميلة، وكان يشعر أن هذا الفن غريب عليه ولا يفهمه لأنه يحلق في أجواء لم يدخلها في حياته.ومع ذلك فهو الآن مندهش . ذلك الجمال ، حتى إنه فكر في الرسم بعد انتهائه من مشاكله الحالية . وسيتصرف بالضبط مثل الفنان الذي يعرض هنا لوحاته . لوحات كبيرة ملونة ، وتلك المواضيع بالذات – شرارات، لهيب ، النار ، دخان ، ورماد.

استمع لحظة إلى إحدى الخطب التي شرح فيها الخطيب بالتفصيل والتحليل مواضيع اللوحات المعروضة، و شعر أنه يفهم تلك اللوحات أكثر من أي شخص في تلك الصالة. وربما يفهمهم المؤلف أكثر منه ، سوف يحاول مناقشته في يوم من الأيام عن النار ، والرسم.

فجأة وقع نظره على لوحة كبيرة ، تصور امرأة عارية تجلس في كرسي أخضر لونه قريب من لون البازلياء ، وقد تصالب ساقاها، وتبدل شعرها العسلي في لهب النار. اقترب أكثر من شدة إعجابه بها، ولاحظ أن الوجه المرسوم تحت الشعر المحترق كبير الشبه بوجه زوجته ، ولكن الجسم لم يكن لها . وجد الثديين في الصورة ممتلئتين أكثر من ثدييها ، مع اختلاف في شكل الساقين . إن قوة هذه اللوحة لم يكن في تصويرها ا لواقعي لجسد المرأة، بل في تخيل والتقاط الشعر الأحمر وهو يتبدل في

النار . نعم بالضبط ، لم تكن تجسد حدود الشعر المحترق ، بل الشعر الذي تحول إلى لهب النار.

كان يهز رأسه ، ويكبس شفتيه إحداهما إلى الأخرى تعبيراً عن إعجابه اللامتناهي بتلك اللوحة : شعر زوجته يحترق ، ولهب النار يتصاعد من رأسها .

وصل المتحدث الرسمي لوزارة الثقافة في النهاية بتأخير يقارب العشرين دقيقة، وبوصوله يكون قد بدأ القسم المتعلق بتوقيع اللوحات بشكل رسمي . جهزت " أغاثا" شريطاً جديداً في المسجلة . تحدث مندوب الوزارة عن الفنان بوصفه أحد أصدقائه القدامى . كان "تيودور" طوال الوقت يهز رأسه موافقاً ، ثم انتقل الخطيب بعد ذلك لتقييم أعمال الفنان مستخدماً تعابير فنية جاهزة كان قد حضرها مسبقاً ، وهي على الأكثر ليست من بنات أفكاره ، وربما لم يكن لها في الأصل أي علاقة بالفنان العارض .

تصنع " تيودور" الابتسامة ، وأخذ يدور عينيه وكأن كلمات الإطراء لم تكن موجهة إليه بالذات . التقطت له "أغاثا" في تلك اللحظة صورة معبرة . أنهى الخطيب كلامه بالقول : إن رسم جريدة تحترق يعتبر من أصعب الأعمال الفنية ، لأن الورق يحترق بسرعة، ومن ثم تختفي الصورة من أمام الفنان بسرعة أيضاً ، والفنان الذي يتمكن من التقاط لحظة الاحتراق ، ويقوم برسمها ، لابد أن يكون فناناً مبدعاً .

صفق الجميع بحماس ، وأشار رئيس قسم الفن في وزارة الثقافة بيده إلى "تيودور" لكي يكون واضحاً للجميع

أن التصفيق يخص ذلك الفنان الذي كان يتحدث عنه في كلمته .

جاء بعد ذلك دور النقاد ، تحدث أحدهم ، ولكنه لم ينتقد ، بل مدح الفنان ولوحاته. خطرت ل" أغاثا" فكرة تسمية النقاد التشكيليين ب " المداحين التشكيليين ". مداح فني تشكيلي ، مداح موسيقي ، مداح مسرحي .

لم تول "أغاثا" كلام الناقد "المداح" أي انتباه لأنها كانت تسجله ، وبذلك يمكنها الرجوع إليه في وقت متأخر. لفت انتباهها وجود شخص لا يمت بصلة إلى هذه الحفلة . كان يبدو بقميصه المصنع من خيوط صناعية أكثر فقراً من حقيقته ، وأكثر ما لفت انتباهها كان تشنج عضلات وجهه المصحوب بنظرات متوترة ، بدا لها كأنه قبل لحظات كان شاهداً على حدوث صدام تراجيدي في الطريق ، أو أنه سمع في قسم الأورام عن اكتشاف علاج لمرضه. كانت نظراته تتطاير منتقلة من شخص إلى آخر ، ومن لوحة لأخرى ، وفي لحظة ما رأته يقضم أظافره بعصبية ، وفي أخرى وجدته يحرك يده بإشارة تدل على عدم اكتراثه لما يحدث من حوله .

توقفت" أغاثا" عن الشعور بالإحباط الذي سيطر عليها منذ اللحظة التي أمضتها مع ذلك الرجل الأناني الذي وصل مرتين إلى الذروة دون أن يشعرها باللذة التي كانت ترغب فيها، وعادت بلمح البصر إلى مهنتها الأصلية بوصفها صحفية . إن قام هذا الشاب – الذي يبدو على حافة الانهيار العصبي – بفعل أي شيء مثير فإن مقالتها ستأخذ منحى أكثر تشويقاً. ماذا سيحدث لو أنه أخرج مسدساً ، وأطلق النار على ممثل وزارة الثقافة؟ أو على أحد النقاد

المداحين ؟ أو على "تيودور" بالذات ! تحركت "أغاثا" بضع خطوات إلى اليسار لكي تتمكن بشكل أفضل من ملاحقة الشاب الغريب ، وتتبع تحركاته المريبة، وحين استدار فجأة نحوها ، التقطت صورته . إن قام بأي تصرف....

لم يكن هذا الشاب يفكر في تشويش الحفل في أي حال من الأحوال . لقد استمع إلى خطبة الناقد المملة المرصعة بالعديد من الكلمات الأجنبية ، وانتقل بعد ذلك إلى متابعة إحدى اللوحات السريالية التي كان فيها الشعر العسلي للمرأة العارية يتبدل في لهيب نار (تأكدت" أغاثا" في تلك اللحظة أن ذلك الشاب الغريب الأطوار يعرف تلك المرأة) . انتقل بعد ذلك ليتابع لوحة أو لوحتين ، ولكنه عاد من جديد إلى لوحة الشعر المحترق لتلك المرأة العارية.

انتهت الخطبة الثانية . صفق الجميع . قامت "أغاثا" بتسجيل تلك اللحظات بلقطات من كاميرتها ، وحين استدارت كان الشاب قد اختفى .

قبل ذلك لم يفهم ما يقوله ذلك الرجل . توقف أمامه بشكل اوتوماتيكي ، ونظر كالأبله في وجهه .

- نار... كرر الرجل طلبه . عندها أدرك أن عليه إخراج الولاعة من جيبه. بحث عن كلمات يعتذر فيها ، وربما يكون قد ابتسم له أيضاً، ولست متأكداً من ذلك.

حين أعاد له الرجل ولاعته فكر في متابعة طريقه ولكنه توقف حين وجد أمامه سيدة ترتدي ثوب سهرة طويل أسود مرصع بوردة حمراء تدعوه فجأة إلى الدخول . وعندما وجدته غير متجاوب ابتسمت، ودفعته برفق

أمامها. وجد نفسه فجأة داخل الصالة مع حشد من الناس كانوا حتى هذه اللحظة يدخنون على الرصيف .

وقف في العتبة، ونظر من حوله . كانت الغاليري ملأى بلوحات كبيرة طغى عليها اللون الأحمر . أراد أن يستدير ، ويخرج ، ولكن أحداً من الخلف منعه من الخروج ، ولهذا ابتعد عن المدخل ، وحين وجد نفسه بين حشد من الحضور سمع صوت إغلاق الباب الرئيسي .

لهذا السبب بقي في الصالة ،وأخذ يتجول بين اللوحات.

أخذت مسؤولة الغاليري - ذات الثوب الأسود المرصع بوردة حمراء - تتحرك بين الحضور بوصفها مضيفة ، حاملة بيدها صينية ملأى بأقداح النبيذ والكونياك . حين لمحت" أغاثا" واقفة في طرف الصالة ابتسمت لها ، واتجهت نحوها.

- أكاد أعرفك فقط كاتبة مقالات في الجرائد . لم ألمحك منذ وقت طويل . قالت لها بحرارة.

- لقد تحولت إذاً إلى صحفية معروفة .لا أرى نفسي كذلك ، وكل همي مراقبة الآخرين. ضحكت " أغاثا" وتناولت قدح نبيذ أبيض.

- أنصحك بالأحمر لأن الأبيض غير موثوق ، اشتريته في اللحظة الأخيرة من السوبرماركت .. وشوشتها ....

لمحت "أغاثا" من جديد في الجهة المقابلة من الصالة ذلك الشاب العصبي الذي كان قد اختفى قبل لحظات .

- ألا تعرفين من يكون ذلك الشاب الواقف أمام اللوحة الزيتية التي تحترق فيها غرة الأسد التي يعجز " دالي " على رسم مثيلتها ؟

دورت المسؤولة عن الصالة عينيها ، وركزت نظرها نحو اللوحة .

- ربما لن يرسمها " دالي " بشكل أفضل ، ولكنه على الأغلب سيرسمها أسرع من فناننا . وذلك الغريب الذي أشرت إليه لا أعرف من يكون . ربما هو موظف عند راعي المعرض ، وما الذي يجعلك تهتمين به؟

- يبدو لي غريب الأطوار ... ردت " أغاثا" ولم تعد تفكر فيه .

قبل ذلك لم يعرف إلى أن يسير ، وربما لم يدرك أنه يمشي. كان تفكيره منشغلاً بزوجته المستلقية مع عشيقها في سريره . سمع آهاتهما ، ولكنه لم يفتح الباب ، وربما كان يخاف من ردة فعله . وقف برهة بالقرب من الباب ، ثم استدار ، وغادر البيت.

حدث نفسه: لحين عودتي سيكون قد غادر دون ترك أي أثر من بعده.

لام نفسه في تلك اللحظة. أراد أن يتغير . بإمكانه أن يتصرف بشكل ألطف . لقد اشترى لها اليوم هدية، وسيرتدي ثياباً أكثر أناقة ، ويبدل ذلك الطقم بلباس أكثر جاذبية. لقد ملت الحياة معه ، ولم تخف عنه شعورها، وجاهرت به، ولكنه لم يعر كلامها أية أهمية ، لا سيما أنها كانت تقوله أثناء جدالهما .

تابع سيره دون تفكير ، ولم يشعر أنه اقترب من مجموعة من الرجال الذين كانوا يدخنون أمام باب مشرع لصالة تسكب ضوءها على الرصيف .

انتقل ما تبقى من الحضور إلى الصالون بعد مغادرة الضيوف الرسميين ، ونقلوا معهم ضجيجهم ، وبذاءتهم .

وقفت "أغاثا" بالقرب من الباب لأن هواء الصالة كان مشبعاً بدخان السجائر ، وهذا سبب لها ضيق تنفس . وقف بمحاذاتها بعض معارفها الذين كانوا يدخلون ويخرجون دون توقف . كانت تسألهم عن رأيهم باللوحات المعروضة ، وفي ذات الوقت تشرح رأيها قائلة: إن الفنان"تيودور" سليل الفنانين الفرنسيين السرياليين، وها هو يتابع مسيرتهم التي بدؤوها قبل مئة عام .

لقد تغير موقفها من "تيودور" بعد أن أمضت معه بعض الوقت في ظهيرة ذلك اليوم ، وهي الآن تفكر بوصفها صحفية محترفة في طريقها للحصول على سبق صحفي . لن يوقفها شيء للوصول إلى هدفها ، حتى لو اضطرها الأمر للإيقاع بمعارفه لتصل إلى معلومات تساعدها في عملها . إنها الآن تحرض أصدقاءه عليه ، وتحثهم على انتقاد لوحاته ، لتظهر أقل أهمية من الناحية الفنية. لكنها لم تتمكن من سحب أي اعتراف مباشر أو غير مباشر يشكك بقيمة أعماله . لا بل إنهم على العكس دخلوا معها في جدال يتعلق بمسائل لها علاقة بتطور الفن ، وتفلسفوا في "اللولبية" التي يمكن تصنيفها بوصفها تعبيراً عن صراع الأضداد الأبدي ، كما تحدث بعضهم عن تبدل المدارس الفنية ، وأساليبها ، واتجاهاتها ، وبذلك ظهر" تيودور" في النهاية -حسب تقييمهم لأعماله- فناناً تشكيلياً رفيعاً عالمي المستوى، ولوحاته ما هي إلا تعبر واضح عن نبوغ فني يقترب مستواه من مستوى فناني بداية القرن الماضي .

قبل ذلك ، حين كان في طريقه من المحطة إلى البيت، كانت خطواته منتظمة ، وسريعة.
كان سعيداً من نفسه . لقد أنهى عمله في فرع الشركة بأسرع مما كانوا ينتظرونه لهذا تمكن من العودة إلى البيت قبل الموعد المقرر لحضوره.
كان في غاية الفرح ، لأنه سيلتقي زوجته، و يهديها العلبة المغلفة بورق الهدايا .

لم يبق في الصالة سوى عدد قليل من الزوار .
- هيا تعالي ، واجلسي معنا ...دعاها " تيودور" إلى الطاولة الموجودة في وسط الغرفة. كان ثملاً . أشعل سيكارته، وأبقى الولاعة مشتعلة . مد يده إلى أحد الصحون الوسخة، و تناول منديلاً ورقياً كان قد استعمله أحدهم من أولئك الذين أصبحوا في بيتهم منذ زمن .
- سنلعب تلك اللعبة ... قال " تيودور" مخاطباً الحضور بصوت مرتجف . – سأحرق المنديل ، وعليكم وصف ألوان اللهب المنبعث منه.
- سيكون أمراً مسلياً ... علق أحدهم .
- الرابح يمكنه أن يأخذ الرماد إلى بيته ، أليس كذلك؟ قال أحدهم ممن وقفوا على يمين "تيودور" وأغرق في الضحك.
أشعل " تيودور" المنديل ،وبدأ الرجال الجالسون من حوله يصرخون بأسماء الألوان، وقبل خمود اللهب ،وضع "تيودور " فوقه منديلاً آخر ، وفي النهاية أحرق علبة السجائر.

حضرت ، مستاءة في تلك اللحظة، امرأة متقدمة في السن ، لم ينتبه إليها أحد قبل ذلك ، وحذرتهم بنبرة قوية ، وأمرتهم بالتوقف عن تلك السخافات قائلة : كفى... يمكن أن يمتد الحريق إلى الكراسي ، وإلى أغطية الطاولات ، والسجاد ، والستائر .

- فكرة رائعة تشدني إليها ... صرخ " تيودور" . كم أتمنى إشعال حريق كبير لأبدأ بالرسم . أتمنى أن تلتقط اللوحة التي سأرسمها صورة الوجوه الخائفة ، وهي تمتص الحرارة المنبعثة من النار،إضافة إلى التقاط طقطقة تكسر اللهب الذي سيغطي صراخ البشر، ولكن العمل الفني الحقيقي لن يكون في اللوحة ذاتها ، بل في الحالة التي سيكون عليها الناس أثناء الحريق .

- نيرو! صرخ أحدهم .

- أنت مجنون ... قالت الشقراء الواقفة خلفه ، وهي تعبث بشعره . انتفض "تيودور" من مكانه غاضباً ، وأبعد يدها عن رأسه .

- لا ، لست مجنوناً ، وإن كنت ، فإنني سأفعل ذلك . لنخرج . أنهى كلامه . فجأة عاد إلى صحوته . نهض ، وبدون ترنح اتجه نحو الباب .

قبل ذلك ، حين غادر محطة القطار ، توقف في إحدى المكتبات الصغيرة . أراد اليوم أن يفاجأ زوجته بعودته المبكرة ، وبهدية بسيطة.

- أرجوك أن تنصحيني برواية تتناسب مع سيدة في التاسعة والعشرين ، تعيش حياة متوازنة ، وينقصها في بعض الأحيان القليل من الترويح عن نفسها .. اختاري شيئاً

هادئاً، مسلياً . يمكن أن تكون رواية فكاهية ، ولكن ضمن المعقول . بهذا الشكل أخرج كل ماالديه دفعة واحدة للبائعة اللطيفة.

- ابتسمت له ، وهي تهز رأسها ، وكأنها تقول له إن الأمر في منتهى البساطة . استدارت ، وسحبت كتابين دون تفكير طويل من الرف ، فكرت برهة وأعادتهما إلى موضعهما.

- أرى أنك تحاول إسعادها من الهدية. سوف أنصحك بأفضل طريقة ، أضافت ، وهي تبتسم في وجهه: الأفضل أن تختار وحدك. خذ وقتك ، وابحث بهدوء عن طلبك ، وأنا من طرفي سأقول لك إن كان ما اخترته مناسباً ...

- أنت محقة ... قال لها ، وهو يتحرك نحو رفوف الكتب.

أثنت البائعة على الكتاب الذي اختاره ، ولفته بورق هدايا أخضر ، وتمنت له في النهاية ليلة سعيدة .

وجدا في نهاية الأمر سيارة تاكسي فارغة . دفعها " ثيودور " إلى المقعد الخلفي ، وارتمى بجانبها .

- سنذهب إلى بيتي . قال لها واثقاً من كلامه .

- وأين بيتك؟ سأله السائق .

ابتسمت " أغاثا" ، وقالت: هل ترى ... لا أحد يعرفك ، وحتى في مدينتك لا أحد يعرفك.

أخبر " تيودور" السائق عن العنوان ، وشد"أغاثا" إلى صدره وقبلها...

- إن كانوا لا يريدون معرفتي رساماً ، سيعرفونني في المستقبل بوصفي حارق بيوت ... همس في أذنها " وسنبدأ

بإشعال النار في عشك ، لا تخافي ، حين أكون ثملاً فإنني أتحكم بقدراتي الجنسية أكثر ، وأتحمل وقتاً أطول ".
أثار وعده حفيظة " أغاثا" ، وأعجبتها الفكرة ، بالرغم من أنها هي الأخرى لم تكن صاحية ، وبدت لها الحياة رائعة ، مشوقة وتستحق العيش .
أحست أن القناع قد سقط عن وجهه ، وأن الرجل الجالس بجانبها في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة ، ما هو إلا عبارة عن عجوز ، وحيد ،ُمهمَل ، غير راغب ولو لحظة واحدة في تبرير نواقصه ، وتعب من سماع كلمات المتملقين ، ويكره منظرهم . أرادت تقبيله، ولكن "تيودور"انحنى في تلك اللحظة نحو السائق ، وسأله :
-هل بإمكاني إشعال سيكارة ؟

قبل ذلك ،حين بدأت عجلات القطار بالتباطؤ وهي تقترب من المحطة ، جهز نفسه، و قفز إلى الرصيف. كان مليئاً بالنشاط ، والحيوية، أسرع بالخروج ودخل النفق ليتجنب الازدحام المتوقع من خروج المسافرين المتقاعدين بحقائبهم الثقيلة ، والركاب مع أطفالهم المستعدين للتضحية بحياتهم من أجل إسعادهم .
بعد نزوله من القطار قرر التوجه مباشرة إلى البيت . لا عجلة في تسليم الملفات ، يمكنها الانتظار إلى صباح اليوم التالي ، وهو بالأصل قد أنهاها قبل الموعد المحدد. كما أنه على الأغلب لن يجد المدير في هذا الوقت، ولا مبرر لذهابه إلى العمل مباشرة من المحطة.
كان متشوقاً للعودة إلى البيت، و لقاء زوجته ، وكم أسعده هذا الشعور. أراد قضاء أمسية ممتعة معها .

اضطر السائق إلى التوقف لأن الأضواء الزرقاء ، والحمراء كانت تملأ الشارع .
أوقفتهم سيارة شرطة ، وعلى بعد عدة أمتار وجدوا الشارع مغلقاً بسيارتي إطفاء ، وسيارة إسعاف ، وعدة سيارات للشرطة.
أشار الرجل في البدلة الرسمية للسائق أن يتقدم ببطء.
ابتعد "تيودور" و"أغاثا" أحدهما عن الآخر ، وتابعا المشهد كل على حدة من نافذته . كانت إحدى الأبنية مضاءة بالأنوار الكاشفة ، في الوقت الذي كان الدخان يخرج كثيفاً من إحدى نوافذ طوابقها العلوية، و كان رجال الإطفاء بثيابهم الصفراء المقلمة بالأبيض يتحركون حول سياراتهم بسرعة ، وهم يسحبون خراطيم الماء الذي كان يتدفق منها بقوة وغزارة ليصل إلى النافذة التي يخرج منها الدخان بكثافة ، ومع ذلك بدا لهم الطريق هادئاً وخالياً من الفضوليين.
- نحن و" نيرون " وصورة الحريق .. قال "تيودور"
تحركت سيارة التاكسي بمحاذاة سيارة الشرطة المتوقفة .
- هل تريد متابعة المشهد ؟ سألته "أغاثا" ،وأضافت: يمكنني أخذ لقطة لك مع الحريق ... هل نتوقف؟ .
اقتربت التاكسي من سيارة الإسعاف . لمحا على الأرض في حمالة الإسعاف جثة مغطاة بالنايلون الأسود .
-لا ، دعينا نذهب إلى البيت . لقد انتهى الحريق في كل الأحوال ... أجابها " تيودور".
استدارت "أغاثا" و راقبت أثناء تحرك التاكسي البطيء من النافذة الخلفية رجال الإطفاء ، وهم يضعون جثة أخرى بجانب الأولى على الحمالة .
انطلقت التاكسي بسرعة .

نصف محادثه

(صوت صبي)

- هل بإمكاني الجلوس بجانبك يا عمي؟

- إن قدمت لي سكاكر فإنني بالتأكيد لن أقبلها، لأني لاأقبل سكاكر من غريب لا أعرفه.

- وهل هي ضارة بالجسم ؟ وماذا عن تلك الحامضة منها التي عليها رسومات حيوانات ملونة ؟

- كلها ضارة؟

- عمي.. أرجوك لا تخبر والدتي عن ضررها، موافق؟ لأنها تعطيني منها دائماً .

- أمي لا تأكلها لأنها بالغة . هل تظن أني لا زلت صغيراً؟

- لست صغيراً ! عندي كل تلك السنين .. كل تلك.

- طبعاً أربع سنوات ، لست صغيراً ، أليس كذلك ؟

- عمي ، أشر لي كم عندك من السنين ؟

- أربعون عاماً ... ثلاثون ؟

- ثلاث وأربعون؟ إنك كبير جداً.

- هل تفقد عقلك أحياناً ؟

- هل أنت غاضب مني ؟

- لا أصدقك ، لست غاضباً . لا بد أنك غاضب.

- أمي تقف هناك . إنها تلك السيدة الجميلة في الثياب السوداء ، وتلف حول رقبتها منديلاً أسود طويلاً .

- لماذا لا تنظر إليها ؟ آه .. فهمت .. لأنك غاضب مني .. أليس كذلك؟

- عمي .. لا تفكر بما قلته لك عن فقدان العقل ... ..
حسناً ؟ إننا نراجع الطبيب حين يختل عقلنا . والدتي ترافقني إلى طبيبة أخرى بالقرب من بيتنا حين أصاب بالرشح.
- أمي جميلة .. أليس كذلك ؟!
- إنها تعجبني أيضاً ، لكنها لم ترق لوالدي على الأغلب، لأنه تركنا .
- أبي رجل ثري ولكنه بعيد ، خلف الحدود ، وإذا أردت الذهاب إليه عليّ ركوب الطائرة .
- طبعاً طائرة بقبطان لأني لا أعرف كبس الأزرار وتحريك المقود في الطائرة.
- طبعاً لقد ركبت الطائرة . هل تعرف يا عمي ، اسم المكان الذي يجلس فيه القبطان ؟
- غرفة القيادة (كابين) . يجلس هناك خلف طاولة كبيرة ، و زميله يجلس خلف واحدة مثلها. إنه هو الآخر قبطان ، ولكنه لا يعرف قيادة الطائرة مثل القبطان الأول، يمكنه أن يكون مثلاً ابنه.
- يجب أن يكونا معاً في الكابين ، لو أراد القبطان الخروج، يمكن للثاني قيادة الطائرة في غيابه .
- لا أقصد الخروج من الطائرة ، لا ... فقط التحرك بين المسافرين أو الذهاب إلى المرحاض .
- بالطبع ، لم أسافر في الطائرة ، ولكني رافقت والدتي في أحد الأيام إلى المطار . كان" يوم الأبواب المفتوحة ". فتحوا باب الطائرة ، وسمحوا للزوار بالتجوال في أقسامها.
- إلى الداخل بالطبع ، إلى الكابين .

- أمي ترافقني دائماً في زيارة أشياء مسليه وهامة. زرنا السيرك ، وحضرنا الكرنفال . والدتي تريدني أن أتعرف على الأشياء.

- إنها لا تقف أمام باب غرفة الطبيب بسبب مرضها ، أنا المريض ، وهي ترافقني .

- هل تعرف ما يعجبني؟ اللعب بالسيارات . عندي سيارتان ، وهي سيارات بوليس جاهزة للقبض على الأشرار كما في التلفاز.

- إنك لم تقابل الطبيب بعد ، أليس كذلك ؟ نحن انتهينا .

- أمي تنتظر الآن فتح الممرضة للباب لأنها نسيت أن تسأل الطبيب عن الحبوب التي أستعملها ، ولا تعرف إن كان عليّ أن أستعملها جميعها ، أو أن أترك بعضها.

- كم أتمنى أن يقول الطبيب ، بعضها فقط .. سيفرحني ذلك لأن أمي تقول سأترك الحبوب إذا تغلبت على المرض .

- وهل أعطوك حبوباً يا عمي ؟

- واحدة؟ هذا شيء عظيم ،أمي تعطيني هكذا . حبة، حبتان، ثلاث حبات . صباحاً ومساءً لقد نسيت في أحد الأيام ، ولكنك لن تخبر الطبيب بذلك، أليس كذلك؟ هل تعدني ؟

- أمي تريدني أن أتغلب على المرض .

- ألست منزعجاً مني ؟

- حقاً ؟

- أعتقد أن عقلك مختل لأنك تستعمل تلك الحبوب.

- لست غاضباً . الطبيب فقط يمكنه تقدير إذا كنت مختلاً ، وإن كنت ، وهل ذلك مهم؟ لا شيء يؤلمني.
- واحدة زرقاء ، إنها سيارة جيب (حقلية) الثانية بيضاء ، سيارات شرطة سريعة ، ولها غمازات قوية . ولكن أمي ليست مختلة ... إنها ترافقني فقط . إنها طيبة ، وليست مختلة.
- ربما ستتغلب أنت أيضاً على المرض ياعمي ، لا يمكن أن تبقى مختلاً إلى الأبد، ولكن ينبغي عليك أن تبلع الحبوب على الدوام ، عندك حبة واحدة فقط، وهذا أمر سهل . إن فمك أكبر من فمي ، وهذا يساعدك على البلع أكثر مني .
- إن أمي تعطيني واحدة حمراء ، وأخرى صفراء، والثالثة خضراء من طرف ، وبيضاء من الطرف الثاني.
- حقاً يا عمي ؟ حبة تشبه حبتي ؟ هذا رائع .
- وحبتك أيضاً كبيرة ؟
- أمي لا تسمح لي بمضغها ، لقد حدث أني تقيأتها، وبالطبع أجبرتني على بلعها من جديد .
- لا، في المرة الثانية لم يحدث شيء من هذا . لا يمكنني التقيؤ مرة ثانية . مرة واحدة وكفى .
- أمي تناديني ، ولكني سأعود .
- هل تعرف لماذا تنادني ؟ أمي لا تريدني التحدث مع أغراب.
- انتظرني ، سأعود في الحال . سأخبرها أنك لست غريب، وأنك تستعمل نفس الحبوب.

- ضحكت ، وقالت لي ألا أزعجك بالحديث . وهل أفعل؟
- الأمر واضح ، وهذا ما خطر ببالي . أمي تعتقد أني أزعج الجميع حين أتحدث إليهم.
- ربما أزعجت أبي .
- لم يكن يحبني ، وقال : لا يمكنه النظر في وجهي، ولكنه نظر . كان طوال الوقت يحدق في وجهي عندما كان في البيت .
- بالطبع .. لا أحد يفلت من قبضتهم ، أليسوا رجال شرطة . أسوأ ما يصادفهم حين يضطرون إلى القبض على "بورش" حمراء . إن سيارات "البورش "أسرع من سيارات الشرطة.
- عندي ياعمي "هيلوكوبتر"، وهي الأسرع ، ويمكن للشرطة استخدامها ، واللحاق بسيارة "البورش " .
- كيف عليّ أن أتصرف؟ يمكن لأحد رجال الشرطة أن يأخذ الطريق المختصر ، و ينتظر هناك سيارة " البورش". سأجرب تلك الفكرة ، وسأرى ، إن كان ذلك ممكناً.
-أبي في غاية السوء ، أمي رائعة ، وطيبة القلب ، وكان عليها أن تختار البقاء معي أو معه . بالطبع اختارتني .
- هل تعرف ياعمي سبب ارتدائها الثياب السود ؟ إنها حزينة . حين يرى الناس امرأة بثياب سوداء يخطر ببالهم الحزن مباشرة ، وليسوا مضطرين إلى سؤالها ، وهي ليست مضطرة إلى شرح

حزنها ، إنهم لا يسمحون لي بالحديث عن سبب الحزن.

- الطبع لا يمكنني أن أخبرك . إنه سر . ستنزعج أمي إن فعلت ،وبعدها لن تكون طيبة معي ، وستعاقبني .

- عمي ... هل عندك أم طيبة ؟

- ماتت؟

- بالطبع أعرف ما يعني أنها ماتت. ولماذا لا تلبس الأسود؟ ألا تعرف كيف يحزن الناس؟

- الحزن سيء ، لأن أمي تبكي في بعض الأحيان . كم أتمنى أن تخرج والدتي من الحزن. وهي أيضاً تتمنى ذلك ، وتقول : متى سينتهي الحزن .

- هل تبكي أنت أيضاً يا عمي ، وحتى لو كنت كبيراً ؟

- إنني أبكي حين أشعر بالألم .أبي يريدني أن أبكي على الدوام .

- حين تبدل أمي لباسها الأسود ، سأعرف أنها ليست حزينة.

- هل تعرف سبب حزنها؟

- محظور عليّ القول لأحد ، لأن أمي ستنزعج .

- حين ستحول أمي نظرها عني سأخبرك . حسناً ؟

- عمي .. إنها لا تنظر الآن . إن سبب الحزن هو...إنها تراقبني من جديد .

- الآن لا تنظر .. إن حزنها بسبب "مريام" ، لأنها لاتعيش ، لقد ماتت .

- لا أملك قطارات (العربة التي تسحب القطار) لوكوموتيف . عندي واحدة خشبية كبيرة ، ولكنها للأطفال الصغار.
- "مريام" هي أختي .
- لقد أخبرتك ، إنني اعرف معنى أنها ماتت . لقد ماتت "مريام" كما ماتت أمك .
-هل اختنقت أمك أيضاً يا عمي ؟
- هل تعرف ، كيف اختنقت أختي "مريام"؟
- ولم لا؟
- سأخبرك السبب . كانت "مريام" مستلقية في الأسفل ، وكان فوقها وسادة ، ولحاف . لقد اختنقت في الأسفل . حين أنام أخفي رأسي تحت اللحاف ، ومع ذلك فإنني لاأختنق.
- ما السبب الذي يدعوهما إلى التصادم ؟ إن رجال الشرطة يحسنون قيادة السيارات . إن أفكارك تشبه أفكار المجانين !
- إنك غاضب مني من جديد ياعمي؟
- إنني أقصد أن بعض الأفكار المجنونة بدأت تراودك . لاأقصد بسبب الحبوب ، والطبيب ، ولكني فكرت في أنه من السخف أن تتصادم سيارات الشرطة. إنني أمسك الأولى في يد ، والثانية في يد ، وبالتأكيد إنني انتبه ، ولا أدعهما تتصادمان .
- حين ماتت " ميريام" جاء رجال الشرطة إلى بيتنا.هل حضرت الشرطة إلى بيتكم حين ماتت أمك؟

- لا ؟ ربما سيحضرون لاحقاً . بعدها ستخبرني عن نوع سياراتهم .لقد حضروا إلى بيتنا بسيارة عادية.
- الشرطة يركبون في التلفزيون سيارات أفضل .
- إنهم في التلفزيون يطلقون النار، ويقفزون ، ويتصارعون .إنهم جاءوا إلينا ليسألوا فقط . حتى إنهم لم يكونوا بلباس الشرطة. سألوا فقط عن سبب وضعي الوسادة ، والغطاء فوق " مريام" ، وأحدهم سألني " لماذا كانت " مريام " على الأرض . سؤال مجنون . بالطبع كان عليها أن تكون على الأرض لأنها لم تتعلم المشي بعد. إنك لا تسمعني ياعمي؟
- حسناً إنك تسمعني ! إن هذا سر ، وعليك أن تنتبه إلى كلامي يا عمي!
- لا تريد؟ إنني أزعجك بلا شك .
- لقد أفرحتني .
- أزلام صغيرة ؟ بالطبع عندي ، ولكنهم كبار ، ولايمكنهم الجلوس في السيارات لاسيما أن سياراتي بدون أبواب .
- قال أبي للشرطة : خذوه معكم إلى السجن . هل تسمع يا عمي ما أقول؟ طلب منهم والدي أن يأخذوني معهم . بالطبع تركوني في البيت .
- انظر ... لقد فتحت الممرضة الباب . أمي ستسألها فقط عن الحبوب ، وبعدها سنغادر إلى البيت .
- أبي كان سيئاً ...لا تسمعني من جديد يا عمي !
- بالطبع . لا تسمعني لأنك تقرأ الجريدة .

- هل تدري يا عمي؟ إن أبي يعتقد أنني خنقت "مريام" عن قصد ، لا أعرف السبب الذي يدعونني إلى فعل ذلك .. وهل كنت تريد أن تموت أمك؟

- إنني ذاهب الآن ، ربما سأعود من جديد إن طلب مني الطبيب أن استمر في استعمال الحبوب . ربما سيطلب منك أيضاً أن تستمر في استعمال الحبوب،و لهذا سنلتقي هنا من جديد .

- إذاً إلى اللقاء يا عمي .

الخليقة الجديدة

خاطب زرادشت الناس قائلاً " أزف إليكم خبر ولادة إنسان جديد يتجاوز بعقله إنساننا الحالي"

" إن عظمة الإنسان آتية من كونه جسراً ، وليس هدفاً : ما نحبه في الإنسان هو أنه حالة انتقال إلى الفناء "

فريدريك نيتشه:هكذا قال زارادشت 1883

نزلت إلى رصيف المحطة الأسفلتي الوسخ ممسكة بيدها اليمنى حقيبة ثياب كبيرة ، وفي اليسرى شماعة علقت عليها ثوبها الأسود الذي أحضرته خصيصاً لحضور الجنازة . أدركت في الحال أنها ارتكبت خطأ ، وأخذت تفكر في الطريقة التي عليها أن تتصرف بها لاسيما أن مفتاح شقة أخيها ليس بحوزتها ، وليست متأكدة من أنها ستحصل عليه في المشفى . ربما تركه أخوها عند أحد من الجيران ليرش الماء على " الكاكتوس"(1) أثناء غيابه. ستقضي على الأغلب ليلتها في الفندق ، لذا قررت ترك حوائجها في قسم المحفوظات في المحطة حتى المساء ، ولا داعي لحملها إلى المشفى .

كانت محطة التاكسي في مواجهة باب المحطة الرئيسي. صعدت إلى أول تاكسي فارغ ، وقبل أن يلتفت السائق إليها ليسألها عن وجهتها قالت له:

- إلى مركز معالجة السرطان من فضلك !

---

1 - نوع من الشوكيات تستخدم للزينة في البيوت تشبه "الصبار"

استقبلها الطبيب ، ومد يده لها مصافحاً ، ثم أومأ إليها بحركة من يده لتجلس في المقعد الموجود أمام طاولته . جلست على طرف المقعد، واستدارت بجسمها نحوه بعصبية واضحة ، وسألته :

- كيف يمكن أن يموت بشكل مفاجئ ؟ .

كانت تلك الكلمات الأولى من حوارهما ، أحست مباشرة بالحرج، لأن سؤالها جاء متسرعاً وفظاً بعض الشيء ، وهذا أمر لم تكن ترغب فيه ، ولم تخطط له في الأصل . لاحظت على الفور استياء الطبيب من تغير ملامح وجهه . كان لا يزال واقفاً .أخذ نفساً عميقاً ، وبصوت غلبت عليه الرتابة الوظيفية والجدية رد عليها:

- من قال لك إنه مات بشكل مفاجئ ؟ كان وضعه في الأسابيع الأخيرة ميؤوساً منه، ولم يحدث أي تدهور دراماتيكي في وضعه الصحي ، وكان منذ مدة طويلة يقترب ببطء من الموت ....

- كنت أجهل ذلك ... ردت عليه مستغربة .

- كيف لنا أن نعرف أنه لم يخبرك بوضعه . إن أقرباء المريض يسألوننا في العادة عن الوضع الصحي لقريبهم بشكل دوري .. قال لها محاولاً تجنب إظهار أي نوع من الغضب ، ولكن نظراته كانت تدل على رغبته في إحراجها، وتعبر في نفس الوقت عن فضوله من الجواب الذي سيسمعه منها . شعر أنه وصل إلى مبتغاه حين وجدها تتراجع وتتحول من الهجوم إلى الدفاع .

-كان يتصل بي بين الحين والآخر ، ولكني لم أسمعه في يوم من الأيام يشكو من تدهور حالته الصحية .. قالت متأكدة من كلامها .

هز الطبيب رأسه ، وكأنه يفكر في الرد .
- كان إنساناً صبوراً على الألم ، ولم يشتك في يوم من الأيام بالرغم من أنه تألم كثيراً في الأيام الأخيرة .
شعر في النهاية بالمركز الذي يمثله في تلك الغرفة، فأضاف بسرعة:
- لم نبخل عليه بالعقاقير المخففة للألم .
- لقد اتصل بي الثلاثاء الماضي الاتصال الأخير ...قالت، وكانت لا تزال في حالة ذهول..
- الثلاثاء الماضي ؟ قاطعها الطبيب ، وأضاف : كان في وضع صعب ، وبحاجة إلى من يساعده في الجلوس ، وبصعوبة كبيرة كان يمسك الكتاب في بيده .
- لقد أخبرني أنه يحضر نفسه لمغادرة المشفى إلى البيت .
دور الطبيب رأسه مستغرباً حديثها ، ورفع حاجبيه ، وكز على شفتيه، ولم يكن واضحاً إن كان يستغرب حديثها عن هاتف أخيها الذي لم يعد بين الأحياء ، أو كلام أخته الجالسة أمامه في المقعد .
شرح لها الطبيب أنهم نقلوا الجثة إلى قسم التشريح المرضي الموجود في القبو ، وأضاف : إن أوقات الدوام هناك قبل الظهيرة فقط، ولا فائدة من ذهابها الآن لأنهم لن يسمحوا لها بالدخول، وكل ما عليها هو إخبارهم في الغد عن موعد الجنازة لينقلوا الجثة إلى المقبرة .
حضرت ممرضة متقدمة في السن ، ووقفت بين درفتي الباب ، حاملة بيدها كيساً كبيراً من النايلون .
- هذا كل شيء .. قالت لها .
- كيف .. كل شيء ؟ سألت أخت المتوفى .

- إن رغبت ، يمكننا أن نفتش غرفته سوية . ردت الممرضة منزعجة .

- لم أقصد .. أجابتها في الحال ، وأضافت: أرجو أن تفهميني . لا أرغب في أخذ فرشاة أسنانه، أو شحاطته معي إلى البيت ، ولكن هل هناك شيء...خاص يمكن أن يذكرني به؟

- هناك كتاب في الكيس ..

فتحت الكيس ، و دققت فيه، وصرخت :

- أنا من اشتراه له .

ارتسمت ابتسامة لطيفة على وجه الممرضة ، وقالت بهدوء: كان يقرأ فيه طوال الوقت ، ولا بد أنه أعاد قراءته عدة مرات . وبدا أنها فكرت لحظة ، وأضافت : حين أصبح في وضع صحي حرج ، ولم يعد بإمكانه أن يتحرك في السرير كان يمسك به، ويقرأ نفس الصفحة ساعات طويلة . بعدها يكبس الجرس ويناديني لأطوي له الصفحة.

- هل قاسى من الألم ؟ سألتها ، وتابعت : أخبرني الطبيب أنه كان يتألم .

- لم يقاس ...كأنه كان يعيش في عالم آخر ... ربما في عالم الكتاب ، لم يكن هنا في القسم على الإطلاق ردت عليها الممرضة وهي تفتح الباب المؤدي إلى معبر طويل تطل من طرفيه أبواب مغلقة.

نظرت الممرضة مرة أخرى في وجهها ، وقالت لها .

- شيء من هذا نراه أحياناً عند المرضى المؤمنين ... ولكنه لم يكن مؤمناً .. أليس كذلك؟

- ربما.. ردت عليها الصبية بصوت حافت ، وهي تعيد الكتاب إلى الكيس ، ولم تكن متأكدة من أن "ربما" تعني الإيجاب أو النفي .

وقفت في مدخل بيته ، وكأنها تنتظر حضوره ليستقبلها ..

تركت الباب المطل على الدرج مفتوحاً في البداية رغبة منها في تغيير هواء البيت ريثما تفتح النوافذ ولكن تيار الهواء أغلقه بسرعة .

كان بيتاً صغيراً يبدأ بمعبر صغير ، ضيق و ينتهي بمطبخ وغرفة صغيرة متصلة بحمام كبير نسبياً ، ولكنه مع ذلك صغير لاحتوائه على مرحاض .وجدت نبتة (الكاوتشوك) FIKUS [1] في المعبر جافة ، ولاحظت أن الغبار يغطي أساس البيت . دخلت المطبخ.

- هل هذا معقول ، وشوشت نفسها وهي تنظر إلى النملية حين وجدت هناك نصف ليمونة يابسة وفنجان عسل كان قد تحول في حبيبات كريستالية . تذكرت أنها هي من نسيته حين كان أخوها في المشفى للمرة الأولى . كانت قد بقيت في تلك الأثناء يومين في البيت، وفي اليوم الأخير خرجت مسرعة لتوصل الكتاب الذي اشترته إلى أخيها ، وتلحق بالقطار . اتصل بها بعد يومين ، وأخبرها أنه أصبح في البيت . وحين اعتذرت عن تركها الليمونة والعسل في النملية ، أجابها باختصار أنها كانت منذ صغرها تتصرف بهذا الشكل، وهذا ليس بالجديد ، وأنه تعود ذلك.

1 - نوع من اشجار الزينة الاستوائيه ، وتدعى "كاوتشوكه"

منذ ذلك الوقت لم يكن أخوها في البيت ، وبقي في المستشفى بشكل مستمر ، ومن هنا أدركت سبب حنق الطبيب عليها . لقد بقي أخوها خمسة أشهر في المستشفى دون أن تزوره مرة واحدة.

زارته مباشرة في بداية مرضه ، وكان ذلك بعد أسبوع من نقله إلى المستشفى . لقد هاتفها، وأخبرها عن مرضه وتشخيصه . سافرت للقائه في اليوم التالي ، وجدته هادئاً متوازن المزاج ، وهذا ما شعرت به خلال محادثتهما الهاتفية . أخبرها أنهم سيعالجونه بالأشعة ، وبعد ذلك ربما سيخضع للعلاج الكيميائي ، وأخبرها أيضاً أن الأطباء متفائلون ، ولا يعتقدون أن وضعه الصحي ميئوس منه . كانت كلماته مريحة ، وتبعث على الاطمئنان، وهذا جعلها تصدقه ، ولم تسأل الأطباء عن حالته الصحية.

لقد أرسلها أخوها في ذلك اليوم لشراء الكتاب الذي كان قد استعاره عدة مرات من زميله الذي كان يستلقي في السرير المجاور . لقد خرجوه قبل أن ينتهي أخوها من قراءة الكتاب.

كانت المكتبة على بعد أمتار من مدخل المشفى ، وحين دخلتها وقفت مندهشة من منظرها . سقف واطىء، وسلالم ضيقة ، وتجهيزات قديمة ، ورفوف ملأى بكتب قديمة وعناوين غريبة ، ورسومات أغرب على أغلفة الكتب مثل الروبوت (الرجل الألي) ، ومخلوقات من خارج كوكبنا ، وسوبرمانات بعضلاتهم المفتولة . أحست أنها غريبة في تلك المكتبة. فجأة انتبهت للبائع الذي كان يراقبها بفضول. لاشك أنها لم تكن تنتمي إلى تلك الأجواء.

- أرجوك .. أريد كتاب العالم الجديد للكاتب "جيري هولاندا جونيور" كانت تقرأ العنوان من قصاصة ورق في يدها. قام البائع بلف الكتاب ، وحين أخبرها عن السعر استغربت كون الكتب في ذلك المكان الحقير باهظة الثمن . إن أخاها الآن في عداد الأموات منذ أربع وعشرين ساعة، وهاهي الآن تجلس وبيدها الكتاب الذي قرأه أخوها قبل وفاته . لم تجد حتى الآن أي رغبة في معرفة ما يحتويه كيس النايلون.

جيري هولاند جونيور :العالم الجديد. كانت رسمة الغلاف تصور رجلاً يجلس في داخله إنسان صغير مكور الظهر . ذكرتها تلك الصورة منذ اللحظة التي اشترت فيها الكتاب بكتيبات الحمل التي يوزعونها عادة في أقسام الولادة .

لم تشعرها الجمل الأولى من الكتاب بالراحة، لا بل وجدتها مملة. وكانت الصفحة الأولى لديها شديدة الشبه بالثانية.

تعودت أن تقرأ روايات من النوع الذي يجعلها تشعر بالاسترخاء ، ولكنها لم تجد في هذا الكتاب الذي بين يديها أي رابط يجمعهما. أكثر ما أثار دهشتها هو أن رواية من هذا النوع قد شدت أخاها ، وجعلته يهتم بقراءتها. إنها، وحسب معرفتها به ، لم تشعر في يوم من الأيام أنه يهتم بالقراءة ، و مقتنيات بيته تشهد على ذلك . كان هناك تلفاز من نوع جيد، إضافة إلى بعض الألبومات الموسيقية ، ولم يقع نظرها على كتاب واحد في البيت. ما عدا بعض المجلات المصورة التي وجدتها مرمية على الطاولة بجانب السرير.

كانت على الدوام تعتبر أخاها إنساناً بسيطاً يحاول جاهداً التمسك بالحياة بأية طريقة دون أي تفكير بالنتائج الأخلاقية . أخيراً ، هي الأخرى كانت تفكر بنفس الطريقة.

كان منتصف الليل ، حين انتهت من المهمات التي عليها تحضيرها . أنهت اتصالها بعمتها التي أعطتها عناوين الأقارب . كانت عمتها على علم بمرض أخيها ، وكانت تتوقع موته أيضاً منذ أمد بعيد . نسيت أن تسأل عمتها عن الطريقة التي علمت فيها بمرض أخوها .

كانت شديدة القلق في البداية لأنها لم تعرف الطريقة التي ستشرح فيها للأقارب حادثة موت أخيها عبر سماعة الهاتف ، ولكنها في النهاية نجحت في إخبارهم ، وكأنها تتحدث في أمور عادية.

- لقد مات مساء الأمس في المتشفى ....لا لم أكن موجودة....لم أكن أعرف أن حالته بهذا السوء .. بالطبع كان عليهم إبلاغ أقرب الناس إليه بأنه يموت ...لا أريد أن أشكوهم ... لا فائدة من ذلك.

لا فائدة من ذلك...لا فائدة من أن أشرح لعمتي أنه خلال تلك المدة من مرضه لم يخبرني عن حقيقة حالته الصحية .

لم تفهم السبب الذي دعاه لكتمان سر مرضه عنها. هناك لحسن الحظ جواب عام لتلك التساؤلات... لم يرغب في إزعاجها وتكبيدها مشقة زيارته . لا بالعكس ، بدا لها أن كذبه الأبيض كان يستند إلى عمق في تفكيره . خطر ببالها لو أنه ترك بطاقة وداع على الأقل ، ولكنها أبعدت بسرعة تلك الفكرة ، وخجلت من نفسها . إن أخاها لم ينتحر، ومات بعد صراع طويل مع المرض ، وحين اشتد عليه المرض ، ووصل إلى وضع سيئ ، لم يعد بإمكانه الكتابة . ألم تخبرها

الممرضة أنه في الأسابيع الأخيرة كان عاجزاً عن قلب صفحة الكتاب؟

وقع نظرها من جديد على الكتاب الذي وجدته مرمياً على الطاولة . (الخليقة الجديدة) ما أسخف هذا العنوان . وربما كان عنواناً لا بأس به لكتاب يتحدث عن أساليب الحياة أو عن التاريخ الحديث ، ولكن المؤلف يعرف بالضبط ما يرمي إليه من خلال هذا العنوان .

أجبرت نفسها على متابعة القراءة ، وأحست بعد لحظات أنها وجدت من خلال قراءتها للكتاب الحافز الذي دعا أخاها لقراءته دون توقف لعدة شهور . كانت الشخصية الرئيسية في الرواية تتحدث عن إنسان أمضى حياته في غرفة صغيرة تابعة لنزل رخيص . ربما وجد شبهاً كبيراً بينه وبين بطل الرواية ، ألا يسكن هو الآخر في غرفة صغيرة من غرف المشفى ، وهو أيضاً سجين فيها ؟ (شدت هذه الصدفة انتباه أخيها) ووجد ذاته في تلك الشخصية ، ألم يكن هو أيضاً عاطلاً عن العمل بشكل من الأشكال مثله ، ولم يكن هناك ما يفعله من الصباح حتى المساء ، إذا لم تحسب الأشعة التي يتعرض إليها نوعاً من النشاط.

شعر الرجل العاطل عن العمل في رواية (الخليقة الجديدة) بتبدل في صحته . أحس أن قوته أخذت تتلاشى شيئاً فشيئاً، وبدأ يشعر بألم في أماكن مختلفة من جسمه ، ولكنه مع ذلك كان متأكداً من أن كل ذلك سينتهي في أقرب وقت ، وبأنه سينتقل إلى مرحلة جديدة من الحياة.

لم تكن مغرمة بالقصص والأفلام التي تتحدث عن أشياء خارقة – فانتازيا- بعيدة عن الواقع ، ولهذا فإنها كانت تقرأ كتاب (الخليقة الجديدة) بكثير من التحفظ ، كما أن فكرة

القصة الرئيسية عن نشوء أو بعث أو ولادة نوع بيولوجي جديد من رحم الإنسانية المعاصرة ستكون هي بالذات الخليقة الجديدة المنتظرة لم تستهويها. لم تكن متعودة قراءة مثل تلك الروايات ، إضافة إلى ذلك لم يناسبها أسلوب المؤلف الذي غلبت عليه الجمل المعقدة المشوبة بانتقال غير مبرر بين الحوار والوصف لبطل كان في الأصل غريباً عنها .

لقد استحوذت تلك الرواية على تفكير أخيها في الأسابيع الأخيرة لدرجة أنه كان يتحمل قراءة صفحة واحدة عدة ساعات . أرادت معرفة السبب الذي دفعه إلى قراءتها بهذا التركيز، كما أحست بنوع من تأنيب الضمير ، أو بذنب لايمكنها تفسيره ، لاسيما أنها في الأشهر الأخيرة لم تهتم بأخيها كما يجب ، ويمكن القول إنها أهملته ، وقللت من أهمية مرضه ، ولهذا أرادت من خلال قراءتها للكتاب أن ترد له بعض الدين ، وتتجاوز الحاجز إلي نشأ بينها وبينه من جراء تقصيرها .

شعرت أن الكتاب يتحدث عن حاجز مشابه . الشاب الذي أحس أن إنساناً جديداً ينتمي إلى الخليقة الجديدة بدأ بشكل تدريجي ينمو وينضج في داخله . أخذ يخفف من علاقاته وارتباطاته مع الناس من حوله ، وفي النهاية توقف نهائياً . إن العلاقات مع الناس من حوله ما هي إلا شرك عنكبوتي ، وعليه التخلص منه لو أراد لذلك الإنسان الذي ينمو في داخله أن يصل إلى الكمال .

إن الخليقة الجديدة لم تكن تختلف عنا في مظاهرها الفيزيائية فحسب ،بل تعدته إلى النواحي النفسية . كان بطل الرواية إنساناً ينتمي إلى النخبة التي وضعت نصب

أعينها مهمة حمل هموم البشرية ومستقبلها . كانت أعضاؤه قد مرت بتبدل مفاجىء mutaci جعلها تتقوقع أو تنمو حسب الظروف ، وبذلك تبدلت علاقته بالعالم القديم . كان يتمتع بإمكانات خارقة في حسه وتفكيره واستقرائه للمستقبل، ويرى الأخطاء التي يرتكبها البشر بكل وضوح ، ويتألم من الأفعال المشينة و النواقص التي يراها تحصل من حوله . عزل نفسه واقتصر في علاقاته مع الناس على الأشياء الضرورية .

إن الشاب الذي كانت تقرأ عنه في الرواية كان مصاباً بالجنون ، وهو بالتأكيد جيري هولاند جونيور بذاته .

فهمت أن تفكير أخيها الذي كان قد وصل إلى حدود الإعياء بسبب مرضه الطويل - مثل شخصية الكتاب – يمكنه أن يتحسس جميع الصفات السيئة للبشر من حوله. وماذا لو كان قد تجنب لقاءها خوفاً من أن يكون اتصالهما المباشر سبباً في انزعاجها ، وإحراجه ، و بشكل أدق : هذا الكتاب أدخل في دماغه أن لقاءه معها سيسبب له جرحاً لا يريده ، ولهذا كذب عليها في محادثته الهاتفية ، وأخبرها أنه بصحة جيدة .

لقد عاش أخوها في حالة توتر نفسي ، وهو على شفير الموت ، وكانت هذه الرواية المجنونة سبباً في تقوقعه وانكماشه على نفسه بشكل أكبر . رمت الكتاب على الطاولة بعصبية وقرف شديدين . نهضت من السرير ، وقررت أخذ حمام للتخلص من تلك الأفكار، ومن شعورها بعدم الراحة الذي لازمها مذ استلقت في سرير أخيها ، غرقت مباشرة بعد الحمام في نوم عميق.

لم تنم طويلاً، أيقظها ضجيج آت من بعيد ، ربما كانت سيارة الحلاب تفرغ حمولتها من البراميل أمام المخزن .

كانت عقارب الساعة تقارب الخامسة والربع . أحست بالعطش، نهضت ، وخرجت إلى المطبخ لتشرب ، ثم عادت لتستلقي من جديد ، وذلك بالرغم من معرفتها أن النوم سيكون أمراً مستحيلاً في هذا الوقت . أشعلت النور، وكانت متأكدة من أنها لن تستنتج شيئاً مسلياً في هذا الكتاب، لكن فضولها دفعها من جديد إلى معاودة القراءة. أرادت معرفة حدود خيال المؤلف ، والنتيجة التي سيصل إليها . مدت يدها وتناولت كتاب الخليقة الجديدة.

أحست بحرقة في عينيها كعادتها حين يجافيها النوم ، أوحين لا ترتوي منه ، ومع ذلك تابعت القراءة بالرغم من شعورها بالقرف . كانت تشعر بأنها تمسك بالسلاح الذي تسبب في موت أخيها . كانت أحداث الرواية تتقدم ببطء شأنها شأن ما يحدث للبطل الذي أخذت تتجسد في داخله، وتنمو أكثر فأكثر شخصية أكثر كمالاً ، شخصية كان عليها أن تخرج من جسده إلى العلن في الوقت المناسب مثل خروج الفراشة من المصيدة .

انتبهت إلى أن المؤلف "جيري هولاند جونيور" قد بدأ يستخدم أسلوباً احتفالياً، وأخذ يغوص أكثر فأكثر في التعابير المجازية المقارنة التي لا علاقة لها على الإطلاق بتلك النبرة الباردة التي استخدمها في القسم الأول من الرواية . لقد كتب أن المخلوقات الجديدة مجهزة بأدوات أكثر دقة تجعلها تغادر أجسادها ، وكأنها تخرج من قشرتها التي لم تعد بحاجة إليها ، وبذلك تدخل العالم الجديد بجسد ، وروح جديدتين . كانت تفاصيل ذلك العالم الجديد مشروحة بشكل يكتنفه الغموض . كان عبارة عن أبعاد

متصلة بحيز ثلاثي الأبعاد لا يمكن للعجزة أن يفهموا محتواه أو يشعروا به .

أية خرافة تلك . تبقى القشرة التي يخرج منها الإنسان الجديد ، ويحلق في أجواء ذات خواص فيزيائية ، وكيميائية مختلفة ، لا يشعر بها سوى أولئك الذين تبدلوا وأصبحوا من صنف الخليقة الجديدة وأتباعها. تنهدت بعد أن قرأت تلك الفقرة ، وبقرف شديد رمت الكتاب من يدها .

لقد تخلصت الآن بشكل نهائي من هذه الرواية السخيفة ، لأن الساعة قد قاربت الثامنة ، وحان الوقت لتبدأ عملها . حين تخيلت ما ينتظرها في ذلك اليوم من لقاءات ، وأماكن عليها زيارتها ، أصابها تشنج مفاجئ في معدتها . قسم التشريح المرضي ، مكتب الدفن، المقبرة ، العدلية .

في اللحظة التي تخطت بقدميها خارجة من مصعد قبو المستشفى أحست بلطمة ذكرتها من جديد بما ينتظرها في ذلك اليوم . وجدت هناك امرأة أهملت هندامها تقف أمام باب قسم التشريح ممسكة بيدها قبضة الباب ، وهي تندب حظها ، وتذرف الدموع قائلة :

"آه يا رجلي الغالي ... ماذا بقي منك ؟ كنت قوياً ، وهاهم قد حولوك على الطاولة إلى جثة يغلفها الجلد . أين قوتك ، وجمالك ؟، لماذا تركتني في هذا العالم البغيض ؟"

تجاوزتها لتتمكن من كبس الجرس الموجود في طرف الباب ، وفي أقل من جزء من الثانية خطرت ببالها فكرة غير واضحة كانت قد قرأتها في رواية " جيري هولاند جونيور" ، وحين لمست سبابتها الجرس وضغطت عليه أيقظها بشكل غير متوقع رنين المنبه المزعج الذي أعادها بسرعة إلى الواقع .

Black & whit
الأسود والأبيض

صورة الأبيض والأسود تعتبر عمياء اللون ، ومصيرها غير مفهوم لدي ، وبلا شك، إنها تعطي المصور مساحة أصغر من الإبداع مقارنة مع الصورة الملونة ، لأنها تستخدم اللون الأبيض والأسود والظل الرمادي، وفي نهاية الأمر يمكننا اعتبار اللون الرمادي ظلاً للأسود .

إن صورة بالأبيض والأسود تبقى عاجزة ، ولا يمكنها أن تصور العالم على حقيقته ، وفي ألوانه الطبيعية ، وتعتبر أقل واقعية وأصالة، وربما متخلفة عن الصورة الملونة في إمكاناتها الفنية، وحتى في وظائفها التسجيلية. ومع ذلك ، بالرغم من أن العامة يستعملون الأفلام الملونة، نجد أن المحترفين من المصورين لا يزالون ملتزمين بصورة الأبيض والأسود . إنك في الوقت الحاضر لاتستطيع الحصول على فلم أبيض -أسود إلا في مخازن متخصصة . أعتقد أن الاخصائيين في أي نوع من أنواع "الميديا" media لا يستخدمون تكنولوجيا متأخرة عن تلك التي يستخدمها عامة الناس . هكذا هي الصورة ، وحسب .

سأتحدث عن تاريخ وتطور الإعلام . إن معرض "*عيد الميلاد الثالث عشر*" لم يشدني أو يثر اهتمامي بسبب عنوانه : التغيرات في مجتمعنا ، وفي الدول المجاورة في السنوات الخمس عشرة من سقوط النظام الدكتاتوري، بل بسبب التكنولوجيا المستخدمة. كنت أعرف أن الشرط الوحيد المطلوب من المصورين العارضين من سبعة دول

هو الأمانة ، والإلتزام بصورة الأسود-الأبيض . لذا كنت متشوقاً لمعرفة إمكانات كل فنان على حدة في الموازنة بين كل ما ينبض من حوله بالألوان في السنوات الأخيرة ، وبين إمكان تصويرها بالأسود والأبيض.

توقعت مسبقاً أن المعرض لن يحظى باهتمام الجمهور، ولكني مع ذلك لم أتصور أن تكون الصالة خالية من الزوار. حين دخلت الصالة فاجأني جلوس متقاعدة بلباسها الأسود في مدخلها وهذا عكس على الفور نوع الفن المتوقع في المعرض . كانت الوظيفة الأساسية التي أوكلت إليها من قبل المنظم هي الطلب من كل زائر في لحظة دخوله أن يوقع في دفتر الزوار ، وبذلك سيوثق ، ويشير إلى الاهتمام الزائد في بلادنا لمثل تلك الأنواع من المعارض الدولية الفنية.

سجلت اسمي في دفتر الزوار بعد عشرة تواقيع سبقتني، وأضفت كلمة" *رائع* " من باب الأدب ، وذلك بالرغم من. أن نظري لم يقع بعد على أية صورة واحدة .

إن أكثر ما يدهشني ، ويهز مشاعري في التصوير الفوتوغرافي ، هو القدرة اللامتناهية لتلك العدسة الصغيرة، - وهي المصابة بعمى الألوان- في التعبير عن أحاسيس الفنان، وعن رغبته في التقاط المشهد ضمن مساحة محددة الأبعاد، وفي منتهى البساطة أيضاً ، وهذا بالضبط ما وجدته في هذا المعرض . لقد استطاع الفنان أن يلتقط في إحدى صوره مجموعة كبيرة من قبضات أيدي رجال متماسكة بقوة في إحدى المظاهرات ، وكان على المشاهد أن ينتبه إلى تلك.القبضة الأنثوية الرقيقة التي كانت تلوح في الهواء في مؤخرة الصورة . وبجانب تلك الصورة

بالضبط عرضت لقطة أخرى تصور عيوناً كبيرة لأطفال غجريين يمدون رؤوسهم ، ويتطلعون إلى فتحة العدسة . وأكثر ما لفت انتباهي فيها كان مشهد عيون كبيرة لطفلة صغيرة منكوشة الشعر في لحظة إغماض عينيها ، وكأنها تعد نفسها لاستقبال حلم جميل ، ولهذا أطلق الفنان على تلك الصورة اسم "*التوقع*".

إن صورة الأسود والأبيض هي عبارة عن نقل مصور لرسالة حزينة . وحتى تلك الحشود المنتشية بالنصر في الأيام الأولى من الثورة ضد الدكتاتور تبدو وكأنها في لحظة ما من انتصارها تحمل في داخلها "*شيفرة* " خفية توحي بعدم ثقتها بما ستحمله السنوات القادمة. سجلت العدسة في صورة أخرى وجوهاً فرحة لمنشقين رسمت في عيونهم صور مستقبلهم وما ينتظرهم بعد دخولهم معترك السياسة الحقيقية : الفساد ،عدم الأهلية، ديماغوجية، وفي أفضل الحالات الإحباط ، وعدم القدرة على تنفيذ الأحلام السابقة.

انتقلت من صورة لأخرى ، ولم يشغلني دخول بعض الطلاب ، الذين كان همهم الوحيد هو الهروب من المدرسة عن هدفي الأساسي .

بالرغم من كون المصورين العارضين ينتسبون إلى مشارب مختلفة من وكالات وصحف ،و بعضهم يعمل مصوراً محترفاً ، وجاءوا من مدن متعددة ، لكنني وجدتهم في مستوى واحد تقريباً . بعد سقوط الدكتاتور امتلأت شوارعنا بأناس مختلفي الأفكار. بعضهم يسرع في سيره ليصل ، والبعض الأخر لا علاقة له بما يجري من حوله ، وهمه الوحيد لقمة العيش ، باختصار شديد ، كل يغني على

ليلاه . أغنياء جدد ، غانيات يعرضن بضاعتهن في وضح النهار دون خجل، مروجو مخدرات يحتكرون ناصية الشوارع لبيع سمومهم ، شحاذون يفترشون الأرض في وسط المدينة ، ويمدون أيديهم طلباً للصدقة .

هذه بوخارست ؟ سألت نفسي حين قرأت عنوان إحدى الصور. إن مشهداً مسائياً بهذا الشكل يمكننا رؤيته في مدننا. هذا الرجل يعيش في " كراكوف" ؟ . استغربت حين لمحت في إحدى الصور رجلاً يحمل بيده كيساً كبيراً من النايلون ، لا سيما أني وجدت وجهه مألوفاً. في عمود آخر كانت هناك لقطة تصور عائلة أثناء خروجها من السوبرماركت ، وأفرادها يحملون هدايا عيد الميلاد . حين قرأت عنوان اللوحة شعرت بالرضى ، وأدركت أن هؤلاء الناس لا يمكنهم أن يكونوا إلا من بلدي . تبع ذلك صورة توزيع الأكل على الفقراء في ليلة عيد الميلاد الكريمة في إحدى أروقة محطة القطار ، وبعد ذلك جاء دور الكاهن الذي كان يتحدث مع شابين حليقي الرأس ، وفي الزاوية بين الجدار الأيسر والخلفي لمحت صورة جعلتني أتجمد في مكاني ، وأفقد توازني . أحسست في الحال أن ركبتي قد ارتختا، و لم تعودا تحملانني ، ووجدت نفسي أسرع للإمساك بأحد الأعمدة لكي أحتفظ بتوازني . كانت صورة....

كانت "هي " في الصورة . عيونها الكبيرة ، نظرتها الفضولية، فمها الذي تعودت تركه نصف مفتوح وجاهزاً لتذوق التبغ . أنفها الصغير ، وجبهتها المعقودة ، وخدودها الشاحبة، و ذقنها البارزة . كانت هي بالضبط .

كنت قبل سنوات قد جمعت صورها ، وأفلام الفيديو التي صورتها فيها، و وضعتها في القبو ، ولا زلت أحتفظ بها هناك. وهاهي الآن تنظر إلى وجهي بفضول من صورة كبيرة معلقة على الجدار ، وأنا أنظر إليها مضطرباً من رؤيتها .

كنت في الحقيقة مضطرباً أكثر من كوني حزيناً . استدرت، واتجهت نحو الباب. هارباً من أمام تلك الصورة ، وكنت طوال الوقت أكرر في داخلي القول : ما أحوجني إلى تنفس هواء نظيف ، ولكنني في واقع الأمر كنت أركض كالمرعوب .

لا أعرف حتى الآن كيف وصلت إلى الكورنيش . كان عليّ أن أجتاز التقاطع ، وأقفز فوق سور حجري مرتفع نسبياً ، كما أني لم أعرف السبب الذي دعاني إلى الذهاب إلى هذا الموقع بالذات .. ربما كنت بحاجة إلى التخفي ، والبقاء وحيداً لأتخلص من الشعور بالخوف الذي أصابني . لقد تمكن هواء كانون الأول البارد المحمل بالبخار أن يعيد لي صحوتي وقوتي.أخذت نفساً عميقاً ، وعرفت في الحال أني سأعود من جديد إلى المعرض ، ولكني كنت في البداية بحاجة لتسمية الأشياء بشكل منطقي وترتيبها . لم يكن هناك شيء خاص . بكل بساطة قام أحد بتصويرها في الماضي ، وربما حدث ذلك مصادفة قبل خمسة أعوام ، أو سبعة .لا ، لا.. سبعة أعوام مستحيل ... كانت لا تزال في حينها طالبة عادية ، وغير مطلوبة للوقوف أمام عدسة مصور يستعمل الأبيض والأسود .

بدأت في وقت متأخر ، ربما قبل ست سنوات ونصف . اكتشفت الأمر في الخريف في اوكتوبر . أمضينا عيد الميلاد معاً في تلك السنة ، ولكنها في العيد التالي كانت قد غادرت ، وفي تلك الأثناء جاءت محاولتها الربيعية للتخلص منه . كانت وحيدة في محاولتها لأني اعتبرت الأمر شأناً خاصاً ، ولم أكن أحب التدخل في شؤونها الخاصة لا سيما أني لم أكن أعرف كيف يمكنني حمايتها. تحملت شهرين كما أكدت لي ، ولكنها ربما تحملت أسبوعين فقط . إنني حتى هذا اليوم لا أثق بكلامها .

لم أنتبه فيما إذا كانت تلك الصورة قد التقطت لها في أيام عيد الميلاد كغيرها من الصور في المعرض ، وإن كان ذلك صحيحاً فإن تاريخها يعود إلى ست سنوات خلت لأن تصويرها في أعياد الميلاد قبل خمس سنوات يعتبر من المستحيلات.

عدت أدراجي إلى الصالة ببطء. و بالرغم من هبوب رياح جليدية ، وكان الجليد في بعض الأماكن لا يزال متماسكاً ، كنت أتعرق ، وأحسست برطوبة تحت إبطيّ ، وحول رقبتي ، وتبللت قبة قميصي . كم بكيت في السنوات الماضية ، ولكني الآن لا أجد دمعة واحدة تسعفني ، وتبلل وجهي . شكل الأمر لي مفاجأة لم أتوقعها ، ولهذا كنت بحاجة إلى ردة فعل سريعة تتناسب مع حجم المفاجأة أكثر من حاجتي إلى الدمع .

دخلت صالة العرض بهدوء وبطء شديدين محملاً بشحنة من الخوف، وبكل أدب واحترام وبدون مقدمات نفذت تعليمات السيدة المتقاعدة ، ووقعت مرة أخرى في دفتر الزوار، ولكني وضعت خط تحت كلمة "*رائع*" التي كتبت

قد سجلتها قبل نصف ساعة . لم أصدق أني كنت هنا حين وقفت أمام الصورة الأولى . أخذت الصور تمر أمام عيوني واحدة تلو الأخرى . قبضات الأيدي المتماسكة ، عيون الغجر، رقص انتصار الثورة ، صورة المنشقين ، ومن جديد صورة الأغنياء الجدد ، وحثالة الأثرياء ، مروجي المخدرات، والمتسولين الراضين بقدرهم ، شوارع المدينة تغمرها الثلوج في الليل،المتسوقين، وأكياس النايلون ، عشاء ليلة عيد الميلاد في المحطة ، الكاهن مع حليقي الرؤوس .. الآن ستأتي صورتها .

لا شك أنها كانت هي في الصورة . تمعنت برهة في وجهها، ثم أجبرت عيناي على تفحص أماكن أخرى في الصورة، ولكني وجدتها لا تطاوعني ، وتعود إلى صورة وجهها من جديد، تحكمت من جديد في مشاعري ، وعدت لأدرس الصورة بغية التعرف على ظروف التقاطها، وماتحتويه من علامات فارقة .

لم أتمكن من التعرف على الشارع الذي التقطت فيه الصورة . التقطت في المساء ، لأن أضواء السيارات توحي بذلك ، كما أني لم أتعرف على المخازن بالرغم فترييناتها المنورة ، و لدي انطباع بأنها شوشت عن قصد في الصورة . هذا ما أراده المصور ، ولم يكن باستطاعة دموعي المنسكبة من فعل شيء .

كانت تجلس على مقعد خشبي مرتدية لباسها المعتاد في تلك الشهور: سترة جينز ترصعها أزرار معدنية حول قبتها ، وقميص سميك يطل من صدرها ، ووشاح كشمير ، وبنطال عريض ، إضافة إلى حلي مزيفة كانت تلمع في معصمها . أمعنت النظر في وجهها ، وعرفت أن المصور

التقط وجهها في اللحظة التي كانت تضع السيكارة بين شفتيها . تعودت في تلك الأوقات أن تمسك السيكارة بين إبهامها وإصبعها الثالث .
هناك أمر آخر حيّرني . كانت تضع على فخذيها جريدة ، وبدا الأمر وكأنها توقفت عن قراءتها لكي يتمكنوا من تصويرها ، وكما أعرفها ، لم تكن تحب قراءة الصحف ، وتعتبرها رمزاً لعالم الانتهازيين ، وغيرهم من محدودي التفكير الذين يجتهدون في تقليدهم ، ولهذا تراهم يتصفحون فيها أخبار الجرائم والرياضة ، وهناك العديد من الناس الذين يمتنعون عن متابعة التلفاز لنفس الأسباب. لقد اختارت الجريدة .
كانت على الدوام صاحبة عيون ساحرة ، وكانت في أكثر الأحيان تمسح تلك الوساخة عنهما ، ولكنهما تبقيان على الدوام كبيرتين وفضوليتين . كانتا تنظران في وجهي ، وتسألان إذا كنت متأكداً من أنني فعلت ما بوسعي لحمايتها. بالطبع لمت نفسي ألوف المرات . كان بإمكاني أن أتحلى أكثر بالصبر والتخلي في حينها عن الكثير من مبادئي . يمكن للإنسان في بعض الظروف أن يضحي بذاته، وينسى تقاليده الإجتماعية لينقذ أقرب الناس إليه . لو كنت قبل خمس سنوات ونصف أملك من الحب أكثر من مما ملكته من المبادىء لكنا اليوم نقف جنباً إلى جنب في هذا المكان نراقب صورة لصبية أخرى تضع السيكارة بين شفتيها ، وتقرأ الجريدة.

الجريدة...بالتأكيد لم تقرأها ، وربما كانت تلف بها حاجياتها، سرنغ ، ملعقة ، ولاعة،أنبوب رفيع للشم ، وغير

ذلك من أدواتها . الماريجوانا لم تعد تؤثر فيها في تلك الأوقات .
حاولت معرفة اسم الجريدة . يمكن التعرف على الجريدة من طريقة تصفيف أعمدتها ، أو من نوع الأحرف المستعملة في طباعتها ، وحين دققت أكثر تأكدت من أنها جريدة ألمانية . كانت كلمة " زيتونج" واضحة ، وكان واضحاً تاريخ صدورها . كانت متمكنة من اللغة الألمانية ، كما أن عدداً لا بأس به من الصحف الألمانية تباع في مكتباتنا.
تمعنت أكثر في تاريخ صدور العدد . قربت رأسي من الصورة ، وأبعدته عنها .
كان قد مضى ثلاثة أشهر على تاريخ صدور الجريدة .... قبل ثلاثة أشهر من صدور العدد أبلغتني الشرطة عما حدث، وكيف حدث . أبلغوني أنها كانت تسكن منذ مدة طويلة مع ثلاثة متعاطين في إحدى البيوت المهجورة في الريف ، وكان ذلك الحريق الثاني الذي تسببوا في إشعاله ، لكنهم في تلك المرة لم يتمكنوا من الخروج ، والنجاة بأرواحهم ، كما أن ممدد المخدر -أرخص نوع- الذي كانوا يتعاطونه ساعد في انتشار اللهب . لقد احترقت أجسادهم ، وأصبح من المستحيل التعرف إليها. لم يطلبوا مني ، كما أني لم أكن أرغب في ذلك. أقنعوني بعدم الإصرار على طلب فحص د ،ان، اي ، لأن العينة- النار تحول الإنسان إلى عينه- يجب أن ترسل إلى الخارج ، ولم أكن أملك الأسباب التي تبرر هذا الطلب.

كان اسم الفنان حسب ما هو منشور هو " دروجسي"، وهذا الاسم المستعار يشير إلى أن المؤلف مرتبط هو الآخر بالمخدرات . كان هذا الأمر لا يعنيني من قريب أو بعيد ، وكل ما كان يهمني هو معرفة أين ومتى التقطت تلك الصورة . دققت من جديد فيها ، ولكني لم أجد ما يشير إلى المكان والزمان .
طلبت "الكتالوج" من السيدة المسؤولة الواقفة بجانب الباب علني أحصل على معلومات أكثر عن المؤلف ، لكنها أخبرتني أن نسخ "الكتالوج" قد نفذت ، ولم تتمكن حتى من إخباري عن مكان وجود القيم على المعرض أو منظمه .
بدت لي كأنها قد حفظت إحدى الجمل عن ظهر قلب : لقد سافر إلى أمريكا لأنهم على الأغلب سينقلون المعرض إليها.
عدت من جديد إلى الصورة ، ولكن بعد قليل طلبت مني تلك المرأة الواقفة في مدخل المعرض أن أنهي زيارتي ، وأن أغادر لأنهم يغلقون اليوم في الرابعة .عدت إلى البيت، وأخذت مباشرة أبحث في الإنترنيت عن " دروجسي" .
أول " دروجسي" صادفني كان طالب مدرسة متوسطة من الدانيمارك ، له ميول موسيقية ، ويحب الغناء، والتأليف ، والتلحين ، ومن سيرته الذاتية عرفت أنه كان في التاسعة من عمره وقت التقاط الصورة . "دروجسي" الثاني كانت شبكة توزيع مواد ، ومستحضرات تجميل ، وملحقاتها من الأدويه . "دروجسي" الثالثة ، واسمها الكامل "دروجسي جينيوس إكس" كانت غسالة هواء منزلية مصممة لذوي الحساسية من الجو . بحثت في مواقع متعددة بما فيها مواقع الجنس ، والبيسبول ، وغيرها من "الدروجسي".

أخيراً يمكن القول إني وجدت شيئاً في موقع إحدى الجامعات . المصور المجري " روبي روناي"يعترف أنه يستلهم صوره من فلسفة المجموعة الأسطورية المسماة" دروجسي". ولا شيء أكثر من ذلك.
تركت في ذلك المساء جميع واجباتي جانباً بما في ذلك خروجي مع *كلبها*. لم أنزل إلى القبو لتهويته ، وأمضيت نهاري وأنا أتنقل في الأنترنيت من موقع إلى آخر . تخيلت نفسي ممسكاً برأس ذلك ال "دروجسي" البوهيمي الذي امتلأت ذراعاه ببقع زرقاء من حقن المخدرات تحت إبطي، وأخذت أضربه بقبضتي التي كانت لا تزال قوية على رأسه على أمل أن يخبرني متى وأين التقط تلك الصورة .
غرقت في النوم ورأسي يستند إلى لوحة تحكم الكومبيوتر ، ومع بزوغ الفجر انتقلت لأتمدد على الأريكة في غرفة الجلوس منتظراً حلول الصباح لأكون أمام باب المعرض.
كنت بحاجة ماسة إلى مناقشة الأمر مع المنظمين ، علهم يرشدونني ، ويساعدونني على معرفة من هو أو من هم " دروجسي".
لا أعرف السبب الذي دعاني إلى تغيير رأيي في الصباح.
ذهبت إلى مكتبة الجامعة ، ومن هناك إلى معرض المدينة.
باحثاً عن أي شيء له علاقة بفرقة " دروجسي". وكلما كنت أقرأ كتباً ومجلات أكثر كانت همتي تزداد وتدعوني إلى متابعة البحث والقراءة ، ولكني مع ذلك لم أجد أي شيء يساعدني لذا أنهيت بحثي في الظهيرة بعد أن فقدت الأمل، وغادرت باتجاه المعرض . كان يوماً بارداً وصقيعياً .

وقفت في باب الصالة تلك المرأة ذاتها وكأنها لم تغير ثيابها. في البداية منعتني من دخول الصالة لأنهم كما أخبرتني قد ألغوا عرض صور " *عيد الميلاد الثالث عشر* ". لم أعر أي اهتمام لمعايير الأدب والسلوك ، ودخلت عنوة إلى الصالة .

كانت محقة في كلامها . نصف الأعمدة كانت فارغة . العمود الأخير الذي كان سبباً في حضوري وجدته فارغاً . جاءتني المرأة العجوز، وأخذت تفرغ حنقها مستخدمة ألفاظاً مبتذلة كانت تطلقها دون النظر في وجهي.

بعد لحظات دخل الصالة رجلان يرتديان زي الحمالين ، وأخذا بتفكيك الأعمدة المتبقية ، ووضع الصور ضمن علب خشبية ، وبدون رغبة أبلغاني أن نصف الصور قد تم نقلها قبل نصف ساعة ، ولكنهما لم يكونا يعرفان إلى أين . في تلك اللحظة انضمت إلينا سيدة ترتدي ثياباً بنية اللون ، وأخبرتنا عن وجهة السيارة ... إلى ألمانيا ، ومن هناك ستطير الصور إلى أمريكا ، ونبهتني بحذر كيف أني لم أصدق قولها البارحة بأن المشرف قد سافر إلى أمريكا ، ومع ذلك تجري الأمور كما هو مخطط لها، والمعرض في طريقه إلى أمريكا .

عدت إلى بيتي ، واصطحبت أخيراً الكلب إلى النزهة المعتادة . حاولت جهدي أن أنحي العواطف جانباً ، وأفكر بشكل منطقي . لقد احتفى " دروجسي" بلمح البصر ، ولهذا كان عليّ الحصول على تاريخ ومكان الصورة بطريقة أخرى .

بدأت بتحضير طعام العشاء في حوالي الخامسة ، قمت بتسخين كونسروة ، وسكبت ما تبقى من شاي المساء في

كأس بلاستيكي،واتجهت نحو القبو . حين فتحت الباب سمعت في الحال حفيف أقدام ، وصلصلة جنزير. لم تكن قد تناولت منذ صباح البارحة لقمة واحدة. كنت عازماً على تركها بدون أكل أو شرب إن لم تخبرني الحقيقة بكاملها. أردتها أن تشرح لي كيف استطاعت في أحد الأيام قبل خمس سنوات أن تخرج من البيت ، وتسمح لذلك السخيف بتصويرها ، وإن لم أتمكن من الوصول إلى الحقيقة فإني أشك بمقدرتي الآن على حمايتها وتخليصها مما هي عليه .

الجارة

أسكن في الدور الثالث من إحدى الأبنية المسبقة الصنع التي تم بناؤها في نهاية الحقبة السابقة ، ومنذ اليوم الأول لسكني لم أستعمل المصعد لأني أشعر بتشنج في معدتي أثناء ارتفاعي بشكل عمودي ضمن مساحة صغيرة مغلقة، وربما تكون هذه إحدى المخاوف التي تلاحق الرجل العصري في هذه الأيام.

أعمل طباخاً في إحدى المطاعم الصغيرة القريبة من محطة الباصات ، وبالطبع ليست مهنة إنسان عصري . كان الأمر مختلفاً حين عملت في مطعم مشهور للنباتيين بمركز المدينة لأن الزبائن كانوا في غالبيتهم من الفنانين ، والكتاب ، وراقصات الباليه ، وموظفي الشركات الأجنبية، والبنوك القريبة ، وربما كنت مصنفاً هناك بين الرجال العصريين .

أسكن في ضاحية ، وهذا بحد ذاته مخالف للعصرنة . لاأعرف أحداً من الجيران ،ولا أحداً يعرفني علماً بأني أمر أمام أبواب بيوتهم كل يوم ، وأعرف أصواتهم ، والرائحة المنتشرة حول بيوتهم، ولكني أجهلهم ، ولا أعرف من يكونون . لا أسترق السمع إلى حديثهم حين أمر أمام أبوابهم بالرغم من أني أبطيء من خطواتي حين ألتقط محادثة مسلية، أو تبادل أفكار، أو أغنية أحبها . لا أراقبهم ، ولكني أرغب في التعرف إليهم بشكل أفضل .

أعيش وحدي ، ولهذا السبب أتشوق إلى التقرب من جيراني الذين يقطنون أمامي على الأقل ، وهذا الأمر بالذات غير ممكن ، لأن صاحب البيت يقوم خلال وقت قصير بتبديل

المستأجرين ، أو إنهم لا يمكثون فيه وقتا طويلا . أطول مدة أتذكرها كانت حين سكن فيه صينيان لا يعرفان كلمة سلوفاكية واحدة ، وخلال سنتين من سكنهما لم يتعلما حتى إلقاء التحية ، وكانا يردان على نهاركم سعيد بابتسامتهم العريضة الباردة المعروفة ، وإضافة إلى كونهما لم يتعلما كلمة واحدة من لغتنا ، كان أسلوبهما في الحياة اليومية معاكساً لأسلوب حياتنا ، بحيث أنهما صاحيان في الليل ، ونائمان في النهار.
قبل الصينيان كان البيت مسكوناً من أربع طالبات كن يعرفانني فقط حين يحتجن إلى إصلاح خزان ماء التواليت.
بعد الصينيين انتقلت إليه عائلة مؤلفة من زوج وزوجته قيل إنهما يعملان في التلفزيون . كانا لطيفين ، وشعرت أني أحببتهما ، ولكن هل يمكن لطباخ بسيط مثلي يعمل في مطعم شعبي أن يقارن نفسه مع أناس يعملون في الإعلام ؟ أنا بالذات أظن أن هذا الأمر مستحيل ، لهذا السبب كنت أتحاشى لقاءهما ، وبعد انتقالهما بقي البيت فارغاً من السكان لمدة شهرين .

أغادر بيتي في السابعة صباحاً إلى العمل لكي أتمكن من تحضير حساء العاشرة ، وأعود إلى البيت حوالي السادسة مساءً . لهذا السبب لم أنتبه في الحال إلى وجود جيران جدد كانوا قد انتقلوا للسكن أثناء غيابي عن البيت ، ولا أعرف حتى يوم انتقالهم بالضبط ، ولكنهم في عيد "جوزيف"[1] كانوا موجودين في البيت ، وهذا أمر يمكنني

---

1 - يحتفل عادة بعيد الاسم حسب الروزنامة ، وتاريخ الاسم مطابق لتاريخ الميلاد

تأكيده لأن صاحب المطعم الذي أعمل فيه يدعى "جوزيف" هو الآخر ، وأكثر من ذلك فإنه في هذا اليوم يعطي رخصة 15% على بعض المأكولات ، وهذا يجعل المطعم يمتلئ بالزوار منذ الصباح ويجعلني من ثم أغرق في العمل .

حدث في ذلك اليوم أني عدت إلى البيت متعباً من العمل ، استلقيت في الحال، وغرقت في نوم عميق . استيقظت حوالي منتصف الليل على صراخ آت من البيت المقابل لبيتي . سمعت في البداية صراخ رجل ، بدا لي جهورياً في نبرته ،- وهذا جعلني أعتقد أن صاحبه رجل قوي ذو سلطة- ، يتقاطع مع صوت خافت لامرأة بدت لي متعبة تناوب بكاؤها مع صياحها الضعيف ، وعادة في الأبنية المسبقة الصنع لا يمكنك من خلال الجدران تمييز نوع الحديث ، حتى ولو كان المتحدثون يصرخ أحدهم بوجه الآخر ، وكل ما يمكنك هو التعرف إلى نوع الصوت .

سمعت صوت تكسر زجاج ، واهتزاز باب أثناء غلقه بضربة قوية تلاه سكون . أحسست أن كتلة كبيرة قد تفجرت بسبب ارتطامها بالأرض . تخيلت في الحال أن هذا الرجل قد ضرب تلك المرأة ، وتسبب في سقوطها.

قررت التدخل في الحال بالرغم من أني تصورته رجلاً قوياً . نهضت من سريري ، وخرجت من بيتي ، ووقفت أسترق السمع بالقرب من السلم . لم أسمع شيئاً . انتهت المشادة على الأكثر بعد سقوط المرأة على الأرض ، وبالرغم من ذلك مددت إصبعي وكبست على الجرس . انتظرت وقتاً طويلاً لحين فتح الباب . قرأت في تلك الأثناء

اسم صاحب البيت من اللوحة المعلقة على الباب : ألن مكروش
بدا لي الرجل الشاب الواقف أمامي قوياً كما تخيلته ، ولكنه مع ذلك لم يشعرني بالخطر، ولم يتصرف معي بغطرسة ، أو استعلاء ، لا بل على العكس وجدته محرجاً بعض الشيء بسبب الأجواء التي وضع نفسه فيها. لم ينتظر شكواي، بل سبقني ، وسارع بالاعتذار. قال لي أنه يأسف لحصول التعارف بيننا بهذه الطريقة ، وضمن تلك الظروف المحرجة ، وشرح لي أن زوجته كانت تحتفل في العمل بإحدى المناسبات (تذكرت الاحتفال باسم جوزيف) ، ولا بد أنها شربت أكثر من تحملها ، وأضاف بسرعة ان الأمر لن يتكرر. إنها لا تشرب في العادة ، ولهذا تأثرت بسرعة ، وسكرت . شعرت بالخجل من نفسي لأني تدخلت ، كان من الأفضل أن أنتظر ، وأعرف ما سيحصل، وهذا ما أخبرته جاري الذي هز رأسه موافقاً ، ومتفهماً لتصرفي. أخبرني في النهاية أنه وضع زوجته في السرير ، وهي نائمة الآن . أخبرته أنها ربما ستشعر بألم في الليل ، ولكنه ضحك ، وبدون أن يتكلم أشار بإصبعه إلى باب بيتي الذي كان على وشك الانغلاق بسبب تيار الهواء ، لولا أني تمكنت بسرعة من وضع قدمي في الداخل وبذلك نجوت من تمضية الليلة خارج البيت . صرخت من ألمي حين ضرب الباب إبهام قدمي . سألني الجار إن كان كل شيء على ما يرام ... تمنيت له ليلة سعيدة ، وأغلقت الباب من خلفي . تمعنت في صورة وجهي أمام المرآة في الحمام . شعر منكوش ، و بيجاما مخططة ، وشحاطة مقلمة عتيقة ، بالمقارنة مع شاب بشعر

طويل ، وكثيف . راعني مظهري، ووجدته مضحكاً بعض الشيء . لحسن الحظ لم تراني زوجته بهذا الشكل .
على الرغم من أني لم أعد أسمع أي صوت ، واستمر الهدوء طوال الليل ، إلا أن النوم جافاني مدة طويلة ، ولم أتمكن بالرغم من تعبي من متابعة نومي . لقد تأثرت بتلك الحادثه ، وبدأت أفكر في أبعادها ، واسترجعت من جديد الحديث الذي جرى بيني وبين جاري الجديد، وبالتدريج وصلت إلى شبه قناعة أن هذا الجار قد استخف بي ، وغشني ، ولم يكن صادقاً معي في روايته لما حدث ، وسألت نفسي : ما الذي يدعوه إلى القول إن زوجته لن تسكر في المستقبل؟ لا بد أنه متأكد من أن العكس هو الصحيح .
في ذلك المساء لم أفكر في جارتي بشكل إيجابي .
حين فتحت باب بيتي في صباح اليوم التالي انزلق من زاوية درفته على الأرض مغلفاً كان محشوراً بين درفة الباب والجدار . عرفت في الحال أنه من جارتي ، ولم أكن بحاجة إلى رؤية التوقيع لأعرف ذلك (ياتا مكروشوفا) ، ولكني حين بدأت القراءة اندهشت من نوعية الخط الذي وجدته شديد الشبه بخط الرجال ، وهل يمكن لإنسانة كحولية أن تكتب بهذا الشكل ؟ إن كتابة من هذا النوع تدل على أن كاتبتها تتمتع بقدر عال من الثقافة . كتبت أن ما حدث لها البارحة يشعرها بالألم ، وهي خجلة من تصرفها (قليلون هم أولئك الذين ينتقدون أنفسهم بتلك الصورة الجريئة ، ويعترفون بالخطأ) ووعدت بأن ذلك لن يتكرر .
إن كتابة من هذا النوع ، وعلى الرغم من أنها على ورقة تكون في العادة غير مريحة لكاتبها ، ولكني في تلك اللحظة

تأكدت أن جيراني أناس محترمون ، وأني إنسان مزعج ، وقليل تهذيب . كان عليّ ، إن قبلت أو لم أقبل ، أن أعتذر لتلك الإنسانة – التي بالأساس ليست مدمنة على الكحول - لأنها بادرت بالاعتذار مني ، وفي طريقي إلى العمل فكرت في الطريقة التي يمكنني فيها شرح سلوكي في الليلة السابقة.

قضيت وقتاً أطول في فتح باب بيتي عند عودتي في ذلك المساء ، ولكنها مع ذلك لم تخرج لتراني . إنني أكره النساء اللاتي يتعاطين الكحول ، وشأني في ذلك شأن العديد من الناس المهذبين، ولكن الأمر كان مختلفاً مع جارتي ، لأني تأكدت من أنها ليست كحولية على الإطلاق . لقد فعلتها مرة، وانتهى الأمر، وهذا لم تؤكده لي رسالتها فحسب، بل عرفته من تصرفاتها في الليالي اللاحقة حيث أني لم أسمع صراخها على الإطلاق.

كنت تواقاً إلى معرفة " يانا مكروشوفا" عن قرب ، وكان ذلك شعوراً خاصاً، لا سيما أني تذكرت صوتها بشكل جيد بالرغم من أنه بدا متعبا عبر الجدار ، إلا أنه مع ذلك يشير إلى أن صاحبته إنسانة ذكية ، وتتمتع بخبرة في الحياة . كان نهاية الأمر صوت الإنسانة التي أتوق إلى التعرف إليها في ذلك البناء الضخم .

مر أسبوع ، وتلاه شهر ، ومع ذلك لم أتمكن من رؤية جارتي ، بالرغم من أني فعلت كل ما بوسعي لكي يتحقق اللقاء . تعمدت في الصباح أن أطيل زمن إغلاقي باب البيت، وفي المساء كنت أقضي وقتاً أطول في فتحه ، وكنت كل يوم أنزل الدرج لرمي القمامة، ولم أعد أتصرف كما في السابق حين كنت أحمل الكيس ، وأرميه في الحاوية

أثناء ذهابي إلى العمل .إنني أخرج الآن من البيت فقط لرمي القمامة ، أو على العكس ، كنت أحمل القمامة لكي أجد سبباً لخروجي من البيت وهبوط الدرج . كنت أكرر فعلتي كل يوم بشكل متقن ، ويحدوني أمل كبير في لقاء جارتي . لم أتصرف بشكل سيء ،ولكن الحظ لم يحالفني ، علماً بأني كنت ألتقي جاري في العديد من الأوقات ، وكان هو أيضاً يحمل الزبالة إلى الحاوية ، كنا نتصرف كأصدقاء. كنت أسأله على الدوام عن أحواله ، وإذا كان يشعر بالراحة في سكنه ، وكان يجيبني أنهما مرتاحان (بالطبع يقصد هو وزوجته) .

لم أجد الجرأة في نفسي لأسأله في يوم من الأيام عن " يانا" بشكل مباشر خوفاً من ردة فعله ، ولكي لا أشعره بفضولي ورغبتي في معرفة علاقتها بالكحول ، لكنه ذكرها دون أن أسأله ، وأخبرني مرة حين التقيته على الدرج أنها تقوم بتعزيل شامل للبيت ، وفي لقاء آخر قال لي إنها مريضة منذ أسبوعين بالتهاب في لوزاتها .

في أحد اللقاءات بالقرب من الحاوية سألته : أليس مستغرباً أني لم ألتق زوجته، ولو مرة واحدة . لم يستغرب سؤالي ، وأخبرني أن زوجته " يانا" تسافر في مهمات خارج المدينة، وتعود متأخرة إلى البيت ، وتخرج مبكرة في الصباح ، وفي أحيان أخرى لا تنام في البيت على الإطلاق . وفي إحدى المرات حين التقيته أمام الحاوية انتقدها لأنها تركت كيلوين من اللحم في الثلاجة دون طبخ، وهاهو يلقيهما في القمامة .

في الأيام الأخيرة بدأت أقضي معظم وقتي في مدخل البيت ، وكل ذلك لكي أراها . كنت أهرع بسرعة حين

أسمع أي صوت أو حركه أمام الباب لأضع عيني على ثقب العين السحرية علني ألمح جارتي .

في إحدى المرات لمحت صبية خارجة من بيت جاري، هرعت بسرعة إلى المطبخ ، وتناولت كيس القمامة بالرغم من أنه كان شبه خال من الفضلات ، وفتحت الباب . رأيت جاري يوشوش تلك الصبية . بدت لي سوقية في شكلها ، وفي حركاتها. كان مكياجها فاقع اختلط فيه الوردي مع البنفسجي ، وكانت تنتعل حذاء بكعب عال ، وتعلق على ساعدها جزداناً أسود لامعاً . بالتأكيد لم تكن " يانا مكروشوفا" التي تخيلتها . حين لمحتني استدارت على الفور ، وتحركت بخفة باتجاه الدرج .

بقيت واقفاً في مكاني أمام الباب ، فاجأني منظرها ، وشعر جاري بارتباكي ، و بما يجيش في نفسي من أفكار ، لذا اقترب مني ، وأخذ يشرح لي بأن تلك الصبية هي صديقة زوجته " يانا" ، وقد جاءت لتشاورها في شؤون العمل ،وأضاف في النهاية ، - ولم أفهم السبب- أن زوجته الآن تستحم . في تلك اللحظة توضح الأمر، وبدا لي جلياً أن جاري يكذب، وكيف يمكن ل" يانا" أن تستحم في لحظة خروج صديقتها من البيت . إن الصبية التي رأيتها لا بد أن تكون عشيقته ، ولقد استغل " ماكروش" غياب " يانا" ، وسفرها في مهمة رسمية .

الغريب في الأمر أن خيانة جاري لزوجته قد حرضني، ودفعني إلى زيادة الاهتمام بها، و يمكن القول بأن الأمر تعدى موضوع الاهتمام ، ووصل إلى حدود جعلتني أفكر فيها ، وأتخيلها تسكن معي بعد تركها لزوجها

بسبب الخيانة (لأنني تخيلت في بعض الأحيان أنها يمكن أن تترك زوجها ، وتنتقل لتعيش معي). كان الأمر خطباً من الجنون ، ولم يكن ذلك بسبب أني حلمت بامرأة لم ترها عيناي من قبل فحسب ، ولكن بسبب أنها هي الأخرى لم ترني . إضافة إلى كونها تصغرني سناً ، وعلى الأقل بعشر سنوات ، وتتحرك بين أناس ينتمون إلى مستويات عالية ، وربما لن تقبل زيارة مطعم من النوع الذي أعمل فيه. لم أكن مغرماً بها (لأن المجنون فقط يمكنه أن يغرم بامرأة لم يرها من قبل) ، ولكن يمكن القول إنها أضحت قسماً من مشاريعي المستقبلية.

حين عدت إلى البيت بعد عدة أيام ، وجدت بانتظاري رسالة معلقة على الباب ، لم تكن ضمن مغلف كما كانت سابقتها . كتبت فيها جارتي أنهم سيقطعون إمدادات الغاز عن البناء من الساعة السابعة مساءَ بسبب عطل في الشبكة، وأضافت أن موظف المؤسسة قد قام بتبليغ السكان في الصباح . التوقيع "*يانا* . م " .

لقد وقعت كنيتها هذه المرة مختصرة ، وبدا الأمر ، وكأننا لم نعد أغراباً ، وأن علاقة حميمية بدأت تنشأ بيننا ، وأصبح أحدنا ينادي الآخر باسمه مباشرة . وهذا الأمر هيج مشاعري ، ووجدت فيه سبباً يجعلني أتجرأ ، وأضع إصبعي على جرس بيتها .

فتح لي جاري ، وبدون حرج سألته إن كانت زوجته في البيت . رد عليّ أنها تستحم (جوابه الحاضر علىٰ الدوام) . شرحت له أني أريد طمأنتها أن توقف إمداد الغاز لن يستمر طويلاً ، وذلك لوجود بيوت في حينا تابعة مسكونة من عمال من مصلحة الغاز ،لهذا فإنهم يقومون باصطلاح

الأعطال بسرعة كبيرة . شكرني ، وبدون تعليق على كلامي،أغلق الباب في وجهي . شعرت في الحال أن اهتمامي ب"يانا" لم يعجبه على الإطلاق.

تابعت التفكير بجارتي مستخدماً خيالي ..... تخيلت وجهها (ضعيف ، خدود بارزة مكسوة ببشرة بيضاء ، عيون زرقاء ، وشفتان رقيقتان داكنتا الحمرة) شعر (أسود فاحم) أياد (نحيلة بيضاء مخططة بأوردة بارزة زرقاء). استرجعت صوتها مستنداً إلى الصوت الذي سمعته في تلك الليلة ، كان متعباً ، وكأن صاحبته تحمل هموم الأرض على كتفيها . كنت على يقين بأنها غير سعيدة في حياتها مع زوجها ، وربما تكون قد تخلت عنه منذ تلك الليلة التي ضربها فيها ، وتسبب في سقوطها . ربما يحاول إيهامي بأنها لا تزال تعيش معه .

كم يؤسفني أن مطعمنا لا يغلق أبوابه في عطلة نهاية الأسبوع ، ربما كنت سأحظى بشرف التحدث إليها قبل انتقالها في ذلك السبت . حين عدت في المساء إلى البيت ، وجدت أمام بوابة البناء مركبة نقل كبيرة محملة بأساس بيتهما ، وكانت على أهبة الاستعداد للتحرك ، ولمحت زوجها يضع بعض الحاجات في سيارته .

مددت يدي ، وتمنيت له التوفيق . أجابني بصوت حزين بأنه يتمنى أن يعيد كل شيء على ما كان عليه في اليوم الذي انتقلا فيه إلى البيت ، لأنه حسب قوله كان في تلك الأثناء في منتهى السعادة . لم أعرف بماذا أرد عليه، لأننا لم نتكلم في يوم من الأيام بطريقة أخوية ، وما عدا ذلك فأنا من طرفي لابد أن أكون مع " يانا" سعيداً في أي مكان ، وتحت أية ظروف .

صعدت الدرج ، وفتحت باب بيتي بسرعة ، لأني لم أجد أي مبرر لأتباطأ في فتحه كما كنت أتقصد في السابق ، حين كنت أبحث عن المفتاح في جيوبي ، أو حين كنت أنزل كل يوم لرمي القمامة . كنت أعرف أن بيت جاري فارغ من السكان .

فوجئت حين فتح الباب من خلفي ، ووقفت فيه سيدة في سن يصعب تحديده ، ألقيت نظرة سريعة على وجهها الذي وجدته لا يتطابق من قريب أو بعيد مع وجه " يانا" المرسوم في خيالي . رأيت أمامي وجهاً متورماً - لإنسانة يصعب وصفها - تملؤه بقع سوداء تغطيها خصل شعر خشنة تخفي زرقة تحت عينها . أرادت أن تقول شيئاً ، ولكن لسانها رفض الانصياع ، ولهذا خرج كلامها غير مفهوم . دخلت البيت بسرعة ، وأغلقت الباب من خلفي، وأسندت عليه ظهري، وحدسي يقول بأنها لا بد ستكسره من خلفي .

لم أصدق بأني رأيت " يانا مكروشوفا". بالتأكيد لم تكن هي ، لأن صورتها في مخيلتي كانت لا تشبه تلك الإنسانة على الإطلاق . كانت مرسومة في مخيلتي بشكل أخر ، وجهها أبيض ، وخدودها بارزة ، عيونها زرقاء ، وشفاهها رقيقة حمراء ، وشعرها طويل أسود ، ولم تكن كحولية على الإطلاق .

إن ما رأيته في البيت المقابل لبيتي قبل قليل كان عبارة عن سراب يتمثل في جثة متحركة تقزز النفس . لا يمكنني نسيانه .

ما أفشل تخيلاتي... ، وهي لا تساعدني على الإطلاق .

امرأة عارية تعبر الساحة ممتطية فرسها .

يبدو لي أنكم يا أحبائي تعرفون إحدى النسخ المعدلة من حكاية الليدي "جودجيف" ،التي لا زلت أعتقد أن بعض فصولها لا يزال حتى اليوم محفوراً في الذاكرة ، ولم يطوه النسيان . إن الحكايا تولد كل يوم ، وفي كل مكان من العالم ، إلى أن يكتشف أحدهم أنه عاش حكاية كان قد سمعها أو رواها له أحدهم . وهنا يبدأ الحديث عن كيفية تشكل الحكايات ، وطريقة انتشارها ، وبذلك تصبح الحكاية قسماً من الحدث .

·من حسن حظنا أن الحكايا في زماننا كانت ممكنة الحدوث .

الليدي " جودجيفا" هل تعرنفوها؟ بعضهم لا يعرفها؟ ، وأكثرهم لا يعرفونها ؟ . وماذا لو قلت لكم الليدي "جودوا" أو الليدي"جوديفا"؟ ، واسمها الحقيقي " جودجيف". نعمة الله . كانت في الحقيقة نعمة من الله لأولئك الذين التقوها ، وللمدينة التي عاشت فيها . كانت المدينة تدعى في تلك الأوقات "كوفنتري" وقبل ذلك "كوفاس تري" وقبلها " كوفانترو". لم تسم أبداً "كوفنتينا" أو" كونفنت" ، ولايمكنني تخمين الاسم الذي سيطلق عليها في زمانكم ، وربما لن تجدوها أبدا لأن الأعداء سيغيرون عليها محمولين على تنانين بأربعة رؤوس ، وسيمحون المدينة على بكرة أبيها من الوجود بما في ذلك كاتدرائيتها . ربما في اليوم الذي ستسمعون فيه عن تلك الحكاية سيكون كل شيء قد دمر، واحترق بألسنة نارية آتية من السماء ، ولكن

مع ذلك فإن حكاية الليدي "جودجيف" من "كوفنتري" يجب أن تبقى خالدة.

الحكاية تبقى خالدة ما دام هناك من يرويها . أحدهم ينسى فكرة، وآخر يضيف فكرة ، وثالث يصل من الأسباب إلى نتائج ، وغيره يخلص من النتائج إلى أسباب . أظن أنكم تصدقون ما سأرويه لكم

وصلت إلى "كوفنتري" قبل سنتين من الحكاية ، أي بعد 1025 سنة من ولادة سيدنا المسيح ، هذا إذا كان سيدنا المسيح قد ولد حقيقة في العام صفر 0 ، وإن كنتم تعتقدون أن السيد المسيح قد ولد في وقت آخر ، عليكم أن تقوموا بحساب الوقت الذي وصلت به ليتناسب مع حساباتكم . كيف؟ لا أعرف ، ولا يمكنني أيضاً مساعدتكم لأني لست عالم رياضيات ، وكل ما أرغب فيه هو إيصال تلك الحكاية إليكم ، ولهذا اتركوني من فضلكم أبدأ الحديث .

سأبدأ ، يجب أن تصدقوني ، وهل تشكون في صحة كلامي ؟ أو تفضلون "كرونيكا" الحوادث اليومية " فلوريس هستوريكم" للمدعو " روجيه من وندوفر" الذي كتب حوادث جرت قبل مائتي عام وربما تجدونه أكثر واقعية ؟ أو أنكم تفضلون سجل الحوادث ل"رينوف هدجن" الذي لم يدونه هو بالذات بل كتبه أحد طلابه . لقد سمعت أنهم في الأيام الأخيرة يستخدمون حكاية الليدي "جودجيف" ، وحكاية "جيروم كراوس " و "أوكتافيا" ل" راندولف" لكسب عطف الناس في الأسواق ، وفي الاحتفالات ، ولكن سردهم للحكايات لا يمت إلى الحقيقة بأية صلة. إن ذلك المخادع المدعو "جيروم" يؤكد مثلاً أن الحادثة قد وقعت في آب ، والواقع أنها حدثت في منتصف

الخريف ، وهذا الأمر يمكنني تأكيده لأنني أتذكر هبوب رياح باردة في ذلك الوقت . سأنصحكم بأمر: من الأفضل للإنسان أن يصدق عيونه فقط ، وأنا أتبع دائماً تلك النصيحة. لهذا صدقوا عيونكم وكلامي .

كنت حاضراً ، صدقوني ، واتركوني أخبركم ، ماذا ؟ يقولون إني أتكلم بلغة إنكليزية قديمة من عام 1025 بعد ولادة سيدنا المسيح ؟ ومن أين لكم معرفة اللغة التي كنا نتخاطب بها في تلك الأثناء ؟ إنكم تستقون معلوماتكم من كتاباتهم ، وغير ذلك فإن ما تسمعونه يختلف عما قلته قبل مائة عام ، وما هو سوى إعادة سرد وتجميع لما قيل ، إعادة كتابة لما كتب .

هل تصدقون ؟ صدقوا. لا تصدقوا؟ لا تصدقوا .إن كنتم لا تصدقون كلامي أرجوكم على الأقل أن تسمعوني . إنها حكاية ذرفت عليها دموع العذارى ، وشعر الكثير من الشباب أثناء روايتي لها بانتفاخ ، وتورم ،.وقوة هائلة في أعضائهم الجنسية .

جئت إلى " كوفنتري" في نهاية عام 1025 ، لماذا؟ أها، إن من واجب الراوي الصادق شرح وتبرير كل شيء. إليكم ما حدث

عرفت من أحد المتشردين (لن أذكر اسمه) حين التقيته في ذكرى تأسيس أسواق السمك في "ستراتفورد" أن مدينة " كوفنتري" تزدهر بشكل كبير. ولكي أكون دقيقاً أخبرني أن الناس يهاجرون هرباً منها لأن حاكمها الغروف "ليوفريك" قد أجبر السكان على دفع ضرائب لايمكنهم تحملها . لهذا السبب فرغ تسعة وستون منزلاً في المدينة من السكان ، وقيل لي إن "ليوفريك" يفكر جدياً

بإغلاق أبواب المدينة لمنع استمرار نزوح الناس عنها. كما أخبرني أن المدينة فرغت من المتسولين ، ولم يبق أمام الكنيسة متسول واحد ، وذلك بالرغم من أن السيدة الجميلة، رائعة الجمال الليدي"ليوفريك" تملك قلباً حنوناً ، ويداها ممدودتان للخير . حين سمعت للمرة الأولى اسم الليدي "ليوفريك" لم أعره أية أهمية ، وانصب اهتمامي بالدرجة الأولى على تلك البيوت الفارغة التي هجرها سكانها، ووجدت في ذلك فرصة عظيمة سنحت لفقير مثلي بقضاء الشتاء أخيراً في منزل عن حق وحقيقة . كان ذلك عندي أكبر هدية من الرب ،لا يمكن تفويتها . كما أنني تخيلت نفسي أقف وحيداً أمام الكنيسة ، ولا أحد غيري يمد يده طلباً للصدقة ، وهذا منحني مزيداً من الثقة بالنفس . لا وجود لعبيد متسكعين ، أو هاربين بلقان ، أو بلهاء،ضعيفي العقل ممن يسيل لعابهم على الدوام ، ولا أحد غيري يمد يده بكل فخر ويمنح ساكني "كوفنتري" شرف إظهار كرمهم ، لهذا لم يكن مستغرباً أني لم أبد أي اهتمام بالسيدة التي يقال إنها جميلة ، وهي الليدي" جودكيف".

إذاً نعود إلى بداية حديثي . وصلت إلى "كوفنتري" نهاية عام 1025، ولم أعد أتذكر اليوم بالضبط ، وهذا بحد ذاته ليس مهماً . كان الطقس في منتهى البرودة . تسكعت فترة بالقرب من باب المدينة ، وبعدها طلبت من أحد الرجال أن يساعد مسكيناً ضريراً في الوصول إلى الكنيسة. إن ذلك الضرير المسكين هو الداعي . لاأعرف كيف تجري الأمور في أيامكم ، ولكن حظوظ المتسول للوصول إلى مبتغاه في عام 1025 كانت تعتمد على قدرته استدراج عطف الناس ، وتقديرهم لمدى علته ، وأنا أعطيتهم فرصة

مساعدة ضرير مسكين لا يمكنه أن يعتمد على نفسه في تدبير أمور حياته . عند الطلب كنت مستعداً لرواية قصة والدي الذي قضى نحبه على يد قاطعي الطرق الذين كانوا في تلك الأثناء شخصيات سلبية إلى أن جاء بعد مائة عام " روبين" من "لوكسلي" ، ورفع من شأنهم ، ومنحهم صفة الأبطال. كان " روبين" مناضلاً ضد العادات الشائعة وضد الجمود الذهني . كما كان بإمكاني رواية قصة كانت بطلتها الحقيقية والدتي التي قضت نحبها أثناء ولادتها لشقيقي الأصغر ، أو ربما بسبب التيفوس . إن إمكان العدوى أصبحت قليلة في زمانكم . كان بصري في طفولتي كبصر النسر ، ولكني أصبت بالعمى في أحد الأيام.... أها... عفواً ، أرجو المعذرة .. لن أروي لكم قصتي ، لأني وعدتكم بالحديث عن حكاية الليدي "جودكيف"

إذاً لقد وصلت كما أخبرتكم إلى " كوفنتري" نهاية عام 1025، وكنت مضطراً إلى الحديث عن نفسي في عدة مناسبات ، عن أبي ، وعن قاطعي الطرق، والدتي ، والتيفوس ، عيون النسر الخ. وبسرعة كبيرة تأقلمت مع الأوضاع الجديدة . لقد حصلت منذ البداية على عطف بعض القرويين ، والقرويات ، الذين سمحوا لي بالاغتسال في براميلهم الخشبية ، وكانوا كرماء بحيث أنهم قدموا لي الحساء الساخن ، وحين كان الجو مناسباً، والظروف تسمح كنت أسليهم بالحديث عن القدرات الخارقة للعميان من أمثالي وقدرتهم على معرفة مواضع الألم في الجسم مستخدمين أيديهم ، وهذا بحد ذاته هدية لنا نحن العميان من الرب. الأرامل كن أول من استفاد من خبراتي في هذا

المجـال ، وقـبلن علاجـي . لا أخفـيكم سـراً بـأني فـي تلـك الأثناء كنت أتمنى أن أكون ضريراً .

وجـدت بسـرعة منـزلاً مهجـوراً فـي إحـدى الطرقـات الفرعيـة، سـكنت فيـه ، وكمـا كنـت قـد أخبـرتكم فـإن عـدد المنـازل المهجـورة وصـل إلـى تسـعة وسـتين منـزلاً . كـان الجميع يردد هذا الرقم : العيش صعب في المدينة ، انظروا .. لدينا تسعة وستون بيتاً فارغاً ... تسعة وستون. لـم يكـن مستغرباً أن ينبري أحد الحمقى ويعلن أن عدد البيوت فـي " كوفنتري" هي تسع وستون فقط .

اتفق الجميع على القول إن العيش في " كوفنتري" أمر فـي غايـة الصـعوبة ، والـدليل علـى ذلـك هـو هجـر النـاس لبيوتهم . تسعة وستون بيتاً فارغاً ... يكفيكم أن تنظروا من حولكم لتعرفوا الوضع الصعب الذي نعيش فيه . هكذا كان حديث أهل البلد. لم أنظر ، لأني كنت ضريراً ، ولكن الأمر كـان جلياً حتـى للعميـان ، والسبب فـي ذلـك هـو أن حـاكم" كوفنتري" الغروف العجوز" ليوفريك" قد تمادى في فرض الضرائب ، والرسوم الخرافيه. ضـريبة علـى المحصـول ، ضـريبة علـى البيت ، ضـريبة علـى الورشـة،ضـريبة علـى المهنة،ضريبة على الحصان،ضريبة على العربة ، ضريبه علـى رواق البيـت ، ضـريبة علـى الحديقـة، وعلـى البئـر، وعلـى الـرأس ، وعلـى الأيـدي ، والأرجـل . رسـم علـى الخطوبة ، والزواج ، والولادة ، والتعميد ، والجنازة. رسـم على دخول المدينة ، ورسم على الخروج منها ، رسم علـى عبور الجسر ، رسم على التبضع ، رسم على البيع . وأحمد الله ،لأنه نسي فرض رسم على التسول .

ومع ذلك لم يكن الحاكم "ليوفريك" بخيلاً ، وكل ما كان يعصره من أهل المدينة من المال يعود ويسكبه فيها. لقد أمر ببناء كنيسة جديدة كنت أجلس أمام بابها كل يوم ، وأمر أيضاً بتجهيز دير القديس "بنديكت" الذي سمح لأولاد المدينة بالحصول على الثقافة والمعرفة ، كما أمر بتنظيف شوارع المدينة مرة كل شهر ، وأمر ببناء جدران عالية حول المدينة تهامس الناس حول جدواها ، وهم يعرفون أنها بنيت لغرض منعهم من الهرب ، والرحيل عن المدينة ، وليس لها علاقة بحماية المدينة من دخول الأغراب.

لقد كان الحاكم " ليوفريك" مصاباً بجنون العظمة ، وكان يفكر على الدوام بشكل المدينة ، و ما ستبدو عليه بعد مائة عام . أرادها غنية ، نظيفة ، كبيرة ، مزدهرة ، ولكنه لم يفكر في االثمن المدفوع ، وفي الضحايا . ستتذكر الأجيال القادمة أمراً واحداً : هذا الصرح أمر ببنائه الحاكم " ليوفريك" . مدينة مثل المتحف .

الليدي" جودجيف" كانت شيئاً آخر لأن اهتمامها كان منصباً على الناس، وعلى مساعدتهم . إنسانة طيبة، متدينة، كريمة ، كريمة، كريمة . كانت تتوقف على الدوام لصلاة قصيرة ، حين تمر ممتطية حصانها بالقرب من الكنيسة، ولم تنسى في يوم من الأيام ذلك المتسول المسكين في دخولها وخروجها . كانت زوجة مهذبة وشريفة ، وتصرفاتها على الدوام كانت على نقيض تصرفات زوجها الحاكم " ليوفريك" ، وكل ما كان يستولي عليه زوجها الحاكم من المدينة كانت ترده إليها مباشرة ، وإن كان بدون الفوائد ،لكنها كانت ترده وحسب .

المهم في الأمر أن أهل المدينة صبروا، ولم يغادروا مدينتهم ، وتحملوا جور حاكمها ، وكل ذلك إكرام لجمال وجهها . كانت الليدي "جودجيف" في منتهى الجمال ، ويمكن القول إنها كانت أجمل إنسانة على وجه الخليقة، المرأة الأجمل .

كيف لضرير لا يبصر، ولم ير جميع النساء في جميع الأزمان ، والأحوال ، أن يحكم في مثل تلك الأمور؟ لقد وقع بصره على الليدي "جودجيف" وهذا يكفي .

أرجو ألا تغركم الأشياء ، وتجعلكم تعتقدون أن النسوة في أيامكم أجمل من نساء ما قبل مئة عام . إن الجمال لا تزداد وتيرته ، ولا تتنامى كميته ، ولا يعرف التكاثر . إن الليدي "جودجيف" كانت أجمل امرأة تسير في هذا العالم ، وهذا الأمر يمكنكم تصديقه، لا سيما أن من يخبركم به هو إنسان ضرير، وهو لا يضن عليكم بالحقيقة، ويخبركم بالضبط عما تراه عيونه. يصعب على الإنسان وصف جمالها. كانت الليدي" جودجيف" مثل... مثل" المادونا" (السيدة العذراء ، وهي تحمل وليدها)، ولكن من تتخيلون في أوقاتكم حين تذكر أمامكم "المادونا" ؟ ربما تتخيلون عاهرة تعمل من أجل المال ، ومن أجل إرضاء شهواتها وغرائزها ، وهي على استعداد لتعرية جسدها أمام العالم من أجل المال.

السيدة الجميلة الليدي " جودجيف" التي كان القليل من سكان إكوفنتري" يعرفون شكل وجهها لأنه كان في أغلب الأحيان مختبئاً خلف خصلة كثيفة من الشعر الأحمر ... لقد كان شعرها في الحقيقة بلون النار ، أحمر رائع ، كروعة السماء ، بهذا الشكل كان يصفه أهل المدينة .. لماذا

نصفه بالأحمر السماوي؟ في أيامنا كانت الصهباء تعبير لعوَب ، وشيطانه، عليكم أن تفهموا : كنا بحاجة إلى إثباتات تشير إلى نزعتها الشيطانية على أساس عرقي . لم يكن الأفارقة والصينيون يعيشون في بلادنا .

الليدي"جودجيف" كانت محبوبة من الناس بالرغم من لون شعرها الأحمر ، لم تكن شيطاناً، بل كانت ملاكاً بشعر أحمر سماوي ، يشبه الشفق الأحمر ، ومع ذلك فإن جميع الرسامين وصانعي البلور الذين سيحاولون رسمها أو نحت شكلها في المستقبل سيتجاهلون لون شعرها . الفنانون لا يستطيعون ربط لون النار بالعفة ، لأن هذا بالذات من شأن الخالق ،أو من شأن الطبيعة التي شكلت وجه الليدي "جودجيف" .

كنت قد ذكرت لكم أنني وصلت إلى "كوفنتري" نهاية عام 1025، وما سأخبركم عنه وقع في خريف عام 1027.

يمكن للحكاية التي سأرويها لكم أن تبدأ ، ولكني قبل ذلك أرغب في ذكر شيء ضروري. كانت الليدي" جودجيف" صبية في عز شبابها ، بينما كان زوجها عجوزاً هرماً ، وربما لهذا السبب حافظت على جمالها العذري ، لأن العجوز"ليورفيك" لم يكن قادراً....كيف لي أن أشرح ؟ لم يكن باستطاعته ......استيعاب جمالها ، إن فهمتموني .

أين توقفت ؟

ما أردت نقله إليكم حدث في خريف 1027حين قرر الحاكم " ليورفيك" بناء برج ثان للكنيسه بالقرب من الباب الذي كان أهل المدينة يقودون إليه الضرير المسكين كل يوم، ولكن خزنة الحاكم كانت تتثاءب لخلوها من المال ،

وكما يقال خاوية على عروشها ، لهذا السبب أرسل في طلب أعيان المدينة ليشرح لهم أن بناء البرج الجديد سيضطره إلى فرض ضريبة جديدة . تخيلوا الوضع ، والظروف المحيطة . في الطرف الأول من الطاولة يجلس الحاكم مع زوجته الجميلة ، وقبالته يجلس أعيان المدينة الذين كانوا يتطلعون إلى وجه الليدي بكثير من الفرح والسعادة ،وقد سحرهم جمالها ، وكان ذلك واضحاً على وجوههم، ولا يمكنهم أخفاؤه . كانت تجلس خجلة بجانب زوجها ، وبعيون نصف مفتوحة تنظر إلى الأرض ، وكأنها غير موجودة ، و لا تسمع ما يدور من حولها من حديث . نهاية الأمر يعلن الحاكم"ليوفريك" عزمه على بناء البرج الثاني . يعم القاعة على الفور جو من التوتر والسكون، ويعرف المدعوون أن المهم آت لا محالة . لم يتركهم الحاكم ينتظرون ، وأضاف مباشرة : إن تمويل البرج سيكون بفرض ضريبة جديدة ، وهذا يعني أن التمويل سيأتي من جيوب سكان المدينة ، وستكون هذه المرة ضريبة على اللباس ، وتابع حديثه قائلاً : إن الضريبة الجديدة ستكون على السروال ، وعلى القميص ، والتنوره ، والمعطف ....

- وماذا لو قرر أحدهم السير عارياً؟ سألته فجأة الليدي "جودجيف" ،. لم يتوقع أحد سؤالها.

- على الأكثر لن يتجرأ أحد على فعل ذلك يا عزيزتي ، يرد عليها الحاكم ، وهو يبتسم. التزم وجهاء المدينة الصمت ، ومن يمكنه في ذلك الوضع أن ينطق بكلمة . كانوا متأكدين أن الضريبة الجديدة ستحولهم إلى متسولين .

- أظن أنك يا سيدي " الغروف " تدعو الناس بشكل غير مباشر إلى الخروج بدون ملابس ... ترد الليدي ، وهي تبتسم .
يصطبغ وجه الحاكم بالأحمر من حنقه الشديد.
- لا تأمر بهذه الضريبة .. أرجوك أيها الغالي ... تكرر الليدي كلامها بكل احترام .
- يضرب الحاكم الطاولة بقبضته القوية ، ويتسبب في انقلاب بعض الكؤوس ،وسكب النبيذ الأحمر على الغطاء الأبيض .(نعم لقد عرفوا في تلك الأوقات النبيذ الأحمر في إنكلترا ، ويمكنكم التأكد من ذلك)
ارتبك الحضور ،ولم يعرف أحد من الأعيان ما عليه فعله . أحدهم أخذ يمسح النبيذ بطرف قميصه ، والآخر أكمل بسرعة شرب كأسه خوفاً من أن يقوم الحاكم بضرب الطاولة من جديد .
ترتسم على الفور ابتسامة شيطانية على شفاه "الغروف ".
- عزيزتي ، يوجه الحاكم كلامه إلى زوجته الليدي "جودجيف" وهو يتلوى كالأفعى متحدياً : إن امتطيت الفرس في ظهيرة الغد ، وتنزهت في ساحة المدينة ، فإني سألغي قراري ، ولن أجبر الناس على دفع تلك الضريبة ، كما سأعفيهم من دفع الضرائب الأخرى السابقة ، ولكن بشرط واحد ، أن تكوني عارية . .
شعر أعيان المدينة أن كلمة "عارية" قد ارتد صداها عن جدران القاعة لفترة طويلة ، ولذلك لم يتجرأ أحد منهم متابعة النظر في وجه الليدي الساحر ، وفي شعرها الأحمر الرباني . إلا أنها تجرأت ، ونظرت في عيون

زوجها ، وأخذت تردد كلماته : إن امتطيت الفرس في ظهيرة الغد، وتنزهت في ساحة المدينة ، فإنك ستلغي قرارك ، وستعفيهم من دفع الضرائب الأخرى السابقة . سأكون عارية ، عارية بالطبع ! بالطبع ....كلمة ، لم يتوقعها الحاكم "ليوفريك" من زوجته المؤمنة التي لا تترك فرصة، إلا وتدخل فيها الكنيسة لتأدية الصلاة ، وها هي توافق الآن على الخروج عارية أمام الناس .

فكر الحاكم العجوز " ليوفريك" أن اقتراحه سوف يُقلب الناس في " كوفنتري" ضد الليدي"جودجيف" التي، حسب تقديره ، ترفض بفعلتها تلك مساعدة المدينة.

لم يفتح الحراس في اليوم التالي أبواب المدينة ، وتركوها مغلقة،لأنهم لم يرغبوا أن يأتي الأغراب، ويشهدوا على تحقير الحاكم لزوجته الليدي " جودجيف" بهذا الشكل . كما قام في ذلك اليوم راعي الكنيسة بإنهاء القداس الصباحي على عجل ، وبدلاً من الوعظ خاطب المصلين المؤمنين قائلاً : عليكم فقء العين التي تشدكم إلى الخطيئة ، وأمرهم بالعودة إلى بيوتهم ، وعدم الخروج منها في ذلك اليوم . بقيت الدكاكين مغلقة ، حتى إن المستهترين من الشباب لزموا بيوتهم ، ولم يخرجوا إلى الشوارع . ومع حلول الظهيرة أغلقت البيوت أبوابها ونوافذها ، ولم يعد يسمع شيء في المدينة التي تحولت إلى مدينة أشباح ، وبذلك استقبلت المدينة المغلقة العمياء سيدتها الجريئة .

أما أنا فقد خرجت عن الإجماع ، والتزمت مكاني المعتاد بالقرب من باب الكنيسة-ألست ضريراً- ،ووقفت أراقب الانتصار الرائع لروح التضامن مع الليدي "جودجيف" ، وارتقاء الحس الوطني ووقوفه ضد الظلم

الجائر للبشر. لقد كان ذلك في أيامنا أكبر معيار للشرف ، والشجاعة ، والفخر ، وهذه هي بالضبط القيم التي أراد الحاكم " ليوفريك" سلبها شعبه، و زوجته ، ليبقيهم خانعين، وخاضعين لإرادته المطلقة . كان ذلك في عام 1027 بعد ولادة سيدنا المسيح . تصوروا كان الموت لدى تلك المرأة أرحم من العيش في كنف رجل ظالم . إن الشعور الوطني ، والالتزام بالمواطنة، والتضامن في تلك الأيام لم تكن شعارات معروفة ، ولكني متأكد أنه سيأتي اليوم الذي سيقدر الناس أهمية تلك الشعارات ، وسيحدث ذلك في الوقت الذي ستختفي فيه المواطنة والتضامن من الحياة اليومية ، وتصبح مجرد ألفاظ تستخدمها الروايات والقصص . لهذا السبب أروي لكم هذه الحادثة علّ الأجيال القادمة تعطي أهمية أكبر لتلك المعايير ، وتحسن تقدير قيمتها في الحياة الإنسانية. هل ستقدرونها في زمانكم؟

وقفت أراقب في مكاني المعتاد بالقرب من باب الكنسيه انتصار الحس الوطني لليدي " جودجيف" على ظلم البشر. كان يوماً خريفياً بارداً ، وكانت الريح الباردة تطير مريولي، وتشعرني بالبرد وهو يدق عظامي . بحثت عن مكان دافيء أحتمي به ، ولهذا تحركت بضع خطوات، ولكني تذكرت في الحال أني نسيت عكازتي مسندة إلى الجدار ، وهذه ليست المرة الأولى التي أنساها فيها ، وكان علي العودة إلى المكان الذي انطلقت منه .

دقت أجراس الكنيسة ، مطلقة رنينها المعهود، بعد أن قام الكاهن -السجين في ذلك اليوم- بشد حبالها معلناً حلول الظهيرة . لم يعد بوسعي فعل شيء ، وقفت في مكاني كعمود الملح . تعرفون ما حدث لزوجة " لوط" في

الكتاب المقدس : استدارت ، وتطلعت ، وتحولت إلى عمود من الملح ، وهذا بالضبط ما حدث معي.

بعد أن سكنت الأجراس ، سمعت صهيل فرس (بالطبع فرس ، لأنني لا أعرف حيواناً آخر يصهل) . لم أتمكن في البداية من تحديد الجهة التي سمعت منها الصهيل ، لأنه في عام 1027 في " كوفنتري" كانت تصب في الساحة خمسة شوارع عريضة رئيسية ، وثلاثة شوارع فرعية ضيقه .

ظهرت بعد ذلك بقليل الليدي" جودجيف" في الساحة ، ومن خلفها متأخراً بضع خطوات الحاكم "ليوفريك". تصوروا هذا الوضع . امرأة عارية تعبر الساحة. ماذا سيحدث لذكوريتكم ؟ لا شيء ؟ حسناً سأكرر ما ذكرته . امرأة عارية تعبر الساحة . لا شيء مجدداً؟ امرأة عارية تمتطي فرساً . لم تتحرك ذكورتكم بعد؟ إذاً اسمعوا : امرأة عارية صهباء تعبر الساحة . إن كانت ذكورتكم لا تزال نائمة تحت خصركم فمعنى ذلك أنكم لا تتذوقون الجمال، واهتماماتكم مشدودة في اتجاه آخر . لنجرب إذاً بطريقة أخرى . وبر الحصان يلمع من شدة تعرقه ، وعضلاته مشدودة ، وخصلات الشعر فوق رقبته تلعب مع الريح، و فتحات انفه تهتز هائجة . لا شيء ، ولا زلتم على حالكم حتى الآن ؟

الليدي" جودجيف" تعبر الساحة ممتطية فرسها ، تطوق بقوة ظهر الحصان بفخذيها العاريين ، وشعرها الأحمر الطويل ينساب مغطياً ظهرها واصلاً إلى ردفيها. لم يكن باستطاعة عيني الضرير أن تترك ذلك المشهد الرائع . كان وجهها الملائكي خائفاً ، جامداً لا يتحرك، في الوقت الذي ارتسمت على شفتيها ابتسامة رقيقة معبأة بالسخرية. كانت

على الأكثر تتذوق بحذر طعم انتصارها الذي وصلت إليه بمساعدة الأهالي وتكاتفهم معها ضد الظلم الواقع عليهم من زوجها ، وربما بدأت تتخيله في تلك اللحظة خارجاً منكس الرأس ، كمسكين ، يتمشى وحيداً ، حاملاً معه أشلاء ظلمه الغاشم الذي لا معنى له .

هبت نسمة باردة قوية حين كانت على بضع خطوات مني جعلت شعرها يتطاير معرياً ما كان مستوراً من جسدها الرائع ، ولا بد أنكم تعرفون ذلك التأثير الماجن لنسمة باردة وهي تلفح حلمة صبية من نوع الليدي "جودجيف ". لقد تابعت بشغف ذلك المشهد ، ووجدته رائعاً في تفاصيله، و بذلك كنت الشاهد الوحيد على مشهد أعتبره بحق إحدى عجائب الدنيا ، وهو بالتأكيد أجمل ما خلقته الطبيعة .

أظن أنكم ستفهمون الآن سبب فشلي في كبت حشرجتي المفاجأة . إن ذلك الصوت لم يخرج من حنجرتي ، بل خرج من داخلي ، من قلبي، ومن معدتي ، وفي المكان الأول ، خرج من أسفل حوضي . لم يكن ذلك الجسد من صنع خالق يشبه الخالق الذي صنع أجساد الأرامل اللاتي كن يطلقن أنات الألم حين أضغط على ظهورهن وأرجلهن في بدايات حضوري للمدينة . كنت أطلق أنات مشابهة لأنات حيوان يتلقى ضربات موجعة من صاحبه.

كنت حيواناً يتعذب لأن وخزات رأس رمح " ليوفريك" كانت تدق عنقي بقوة .

هل تراها ؟ تتأوه من اللوعة ؟ وما ذا أقول أنا المجبر على رؤيتها كل مساء بهذا الشكل . هذا بالضبط ما قاله لي الحاكم قبل أن يرمي بين قدمي كيس نقود فضية . لكن

بعدها حصـان الليـدي "جودجيـف" ذات الشـعر الربـاني الرائع ، وهذا تحرك متوارياً في إحد الشوارع الضيقة.

بذلك انتهت مرحلة هادئة من حياتي في " كوفنتري"، وكان ذلك حين اكتشف الحـاكم " ليوفريك" كما اكتشفت زوجتـه الليـدي " جودجيـف" ، وهمـا أهم شخصـيتين فـي المنطقة، أنني لست ضريراً ، وحين يكتشف الكذبة أكثر من شخص ، فمن المؤكد أنها ستنتشر، وسيعرفها الجميع ، ولم يعد بالإمكان إخفاؤها. تذكروا ذلك يا أحبائي .

لقد كان مواطنو " كوفنتري " يملكون حساً ، وصفات تميزهم عن غيرهم من النـاس، وأهم تلك الصفات ، كـان تمسكهم بالعدل ، وعلـى الأغلب كـانوا سيرجمونني علـى فعلتـي تلـك ، لأنـي أسـتحق ذلـك . لقد ارتكبـت فـي حقهم خطيئتين أستحق عليهما الموت . لقد خدعتهم سنتين كاملتين كـانوا خلالهمـا لا يكلـون ولا يملـون مـن تقـديم الحسـنات والهدايا لضرير مزيف . لقد حـولهم ذلك الضـرير المزيـف إلى عميان لا يبصرون ، والأسوأ من ذلك، وهـي الخطيئـة الأكبر التي ارتكبتها بحقهم ، هو رؤيتـي لسيدتهم الليـدي" جودجيـف" التـي يؤلهـون جمالهـا ، عاريـة ، وبسـبب تلـك الخطيئة الثانية كنت أستحق الرجم ، وبما أنني فـي الأصـل مـن النـوع الـذي يأخذ ، ولا يعطـي ، فـإني لـم أنتظـر موتـي المؤكـد علــى يـدهم ، وبـدلاً مـن ذلـك تحركـت بسـرعة، وأمسـكت بكـيس النقـود الفضـية الـذي رمـاه الحـاكم " ليورفيـك" بـين قـدمي ، ودسسـته تحـت إبطـي ، وتناولـت عصـاي السـحرية المصـنوعة مـن الخشـب الأبـيض ، وتحركت ببطء مستنداً إلى جدران البيوت في طريقي نحو

بوابة المدينة. كانت قطع النقود الفضية الموجودة في الكيس ترن فوق صدري .

حين اقتربت من بوابة المدينة ، تخفيت في مدخل أحد البيوت القريبة ، وانتظرت إلى حين يفتح الحراس مدخل المدينة الذي يعتبر الآن مخرجاً لي . وبينما كنت أقف هناك سألت نفسي : لماذا لم يطعنّي الحاكم برمحه في رقبتي كما يطعن الضفدعة حين وجدني أتمتع برؤية زوجته العارية في باب الكنيسة ، وبدلاً من ذلك كافأني ، ووهبني تلك الثروة التي لا تقدر.

هل تراها ؟ تتلوى من اللوعة ؟ وأنا مجبر على رؤيتها كل مساء . هكذا خاطبني . ربما لم يكن ذلك العجوز عاجزاً عن تأدية مهماته الذكورية ، ولم يكن حوضه جافاً بالتمام، ولكنه حين ينظر إلى الجمال الملائكي الذي يشع من جسد زوجته يصاب على الأكثر بالخمول ، والإحباط ، وربما هو بحاجة إلى من يقتسم معه (النظر) إلى هذا الجمال . لقد أراد من سكان المدينة أن يشاطروه المتعة برؤية الليدي" جودجيف" لأنه كان يعتقد أن رؤية تلك الهدية الربانية من قبل عيون أناس آخرين سيخفف عنه، ويجعله يتابع حمل صليبه. كانت الليدي" جودجيف" بالغة الجمال إلى الحد الذي جعله يفكر أنه لا يستحقها وحده، ومن الظلم تشويه جمالها على يد فلاح عادي . لقد جاءت ردة فعل سكان "كوفنتري" في منتهى القسوة ، وخيبت أماله، حين رفضوا بحزم مقاسمته قدره ، وأرادوا تركه وحده إلى الأبد مع ذلك الجمال الذي لا يقدر عليه، ولكنه في النهاية ولحسن حظه وجد أمام باب الكنيسة ضريراً متسولاً يقبل هديته ، وهذا ما أفرحه ، وخفف من مصيبته.

بقيت واقفاً بالقرب من بوابة المدينة أتحمل أقسى أنواع العذاب . شعرت بألم ينخر جسدي ،لا سيما في قسمه السفلي ، حيث كنت أشعر بتورم وسخونة لا يحتملان ، لهذا كنت طوال الوقت أضغط آلتي الذكورية إلى الأسفل مستعيناً بكيس النقود الفضية، ولكن ذلك أيضاً لم يساعد على تخفيف ألمي . لا أعرف حتى الآن كيف تمكنت من تخطي بوابة المدينة المحروسة بسروالي الوسخ المزرزر من الأمام الذي كان على وشك الانفتاق . كنت أشعر بدوار في رأسي من ندرة الدم الذي كان في معظمه يغلي في أسفل حوضي .

قد يبدو لكم الأمر مضحكاً ، وكيف لضرير مسكين أن يساعد حاكماً متسلطاً ، سيد مدينة " كوفنتري" ؟ ولكن هذا ما حدث بالضبط . لقد حمّلني صليبه ، وتمكن بذلك من تحرير نفسه، وتخفيف معاناته ، وكما عرفت لاحقاً ، فقد تمكن من بدء حياة طبيعية وهادئة مع الليدي" جودجيف". تعرفون ما عنيته بكلمة طبيعية . لقد رزقا بولد أسموه"الفكار"، وهذا رزق في وقت لاحق بابنة أسماها"الدجيت" وتلك أصبحت بعد موت زوجها ملكة " ويلز" ، وبعد موت زوجها الثاني أصبحت ملكة انكلترا، ولكن هذه السعادة في البلاط الإنكليزي لم تدم سوى سنة واحدة ، لأن زوج "الدجيت" ملك انكلترا قتل على يد جنود "وليم النورماندي" حين غزا ذلك الأخير بلادنا . من يدري كيف كانت تبدو الليدي" جودجيف" في تلك الأثناء حين أصبحت جدة ملكة " ويلز" و "انكلترا " ، وإن كانت لاتزال تسحر الناس بجمالها، ولكنكم تخطئون لو ظننتم أن الملك الجديد " وليم النورماندي" قد جرد جدة الملكة

" الدجيت" من جميع ممتلكاتها . إن الليدي "جودجيف" الصهباء رائعة الحسن ، والجمال ، التي لم يعد شعرها أحمر كالسابق، بل تبدل إلى الأبيض ، الأبيض الإلهي ، ماتت بهدوء كأغنى امرأة في تلك الأصقاع .

وما حدث معي ؟ لقد توفيت قبل سنوات من وفاة الليدي"جودجيف". تسكعت في البلاد حاملاً كيس نقودي الفضية الذي كنت لا أزال أضغط به على آلتي الذكورية التي كانت على الدوام منتصبة إلى حدود الانفجار بينما في كنت أشعر بدوار من نقص الدم المتدفق إلى رأسي لأنه في غالبيته كان منشغلاً في عالمي السفلي ، لهذا أخذت أصرف المال في معاقرة النبيذ الأحمر الذي كنت أسكبه في شراييني لتعويض الدم الناقص ، ولكني كلما شربت ازداد دوار رأسي ، ولم يتغير الوضع في عالمي السفلي الذي بقي على حاله قاسياً كالبلور . نفد المال مني ، ولهذا لم أجد وسيلة أفضل للحصول عليه من البدء برواية حكاية الليدي "جودجيف" للناس .

أجد من واجبي قبل أن أنتهي من رواية حكايتي عن الليدي أن أضيف شيئاً . لا زلتم مهتمين بنهاية الحكاية؟ طرأ تغير إيجابي كبير على سلوك الحاكم " ليوفريك" ، وأصبح انساناً آخر ، ويمكن القول إنه أصبح حاكماً عادلاً محباً للخير يفي بكل ما وعد به الناس بلمح البصر . لم ينفذ ضريبته المقترحة على اللباس ، لا بل إنه ألغى جميع الضرائب التي كانت تثقل كاهل الناس ، وأصبحت مدينة " كوفنتري " جنة للمستثمرين ، وانتقل للسكن فيها العديد من التجار والحرفيين من كافة أصقاع البلاد ، وبذلك تحقق حلم

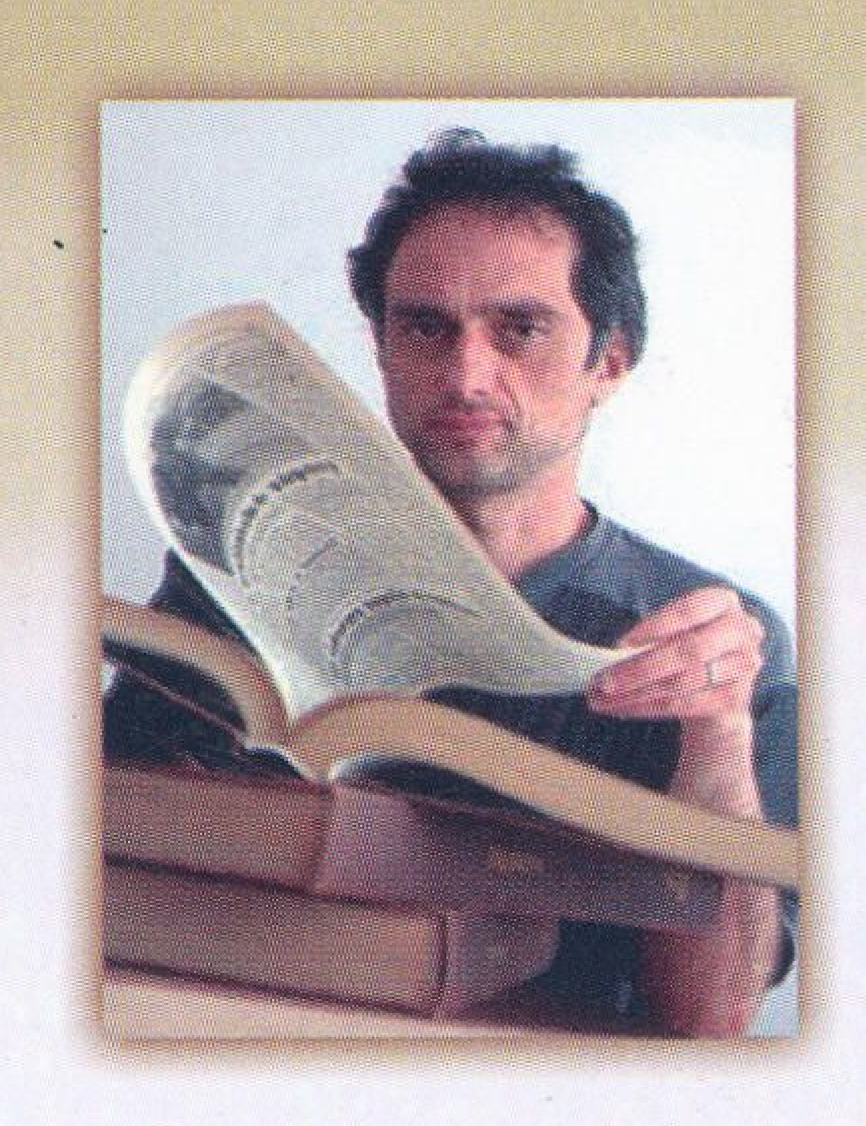
" ليوفريك" القديم في جعل مدينته غنية نظيفة ، وحدث ذلك كله بدون ضرائب .

بقيت ضريبة واحدة فقط . لقد وعد الحاكم السكان بإلغاء كافة الضرائب المترتبة عليهم ما عدا ضريبة واحدة وهي ضريبة على تملك الحصان . بقي السكان في "كوفنتري" يدفعون ضريبة على الحصان، وكانت ضريبة سببها المتعة التي شعر بها حصان الليدي "جودجيف"حين امتطته عارية ، وأصبحت منذ ذلك التاريخ ضريبة يتوارثها السكان على الحصان ، ضريبة موروثة من وراثة الخطايا.

سلسلة الأدب السلوفاكي المترجم إلى العربية

(د.غياث الموصلي)

1. ما لذة السلطة لاديسلاف مناتشكو
2.الأمل لا يموت (مذكرات الكسندر دوبتشك)
3. عقاب الجريمة يان يوهانيد س
4.سائق القطار الظالم بافل فيلكوفسكي
5. مذبحة في بيروت (شعر) ميلان ريختر
6.النحلة الألفية (رواية) بيتر ياروش
7.مذكرات خروشتشيف
8.مذبحة بلوشتين (رواية قيد الطبع) لاديسلاف مناتشكو
9.قريب جداً (قصص قصيرة) بافول رانكوف
10.الثلوج الساخنة (قصص،مسرح، سيناريو بيتر ياروش
تطلب من المكتبات أو من هاتف 031 2461117



بافول رانكوف Pavol Rankov

ولد الروائي بافول رانكوف عام ١٩٦٤ في مدينة بوبراد السلوفاكية (أكبر المدن الموجودة على تخوم جبال التترا) درس في كلية الفلسفة التابعة إلى جامعة "كومنسي في براتيسلافا حيث يعمل هناك في الوقت الحاضر كمدرس . أول إصداراته كانت مجموعة قصصية بعنوان "مع مرور الزمن " عام ١٩٥٥ تلاها بعد ذلك " نحن وهم / هم ونحن" عام ٢٠٠١ وفي ربيع ٢٠٠٤ صدرت له الرواية التي هي الآن بين آيديكم بعنوان "قريب جداً "

يحتل الروائي بافول رانكوف المواقع الأولى بين الروائيين الشباب حسب تحليل النقاد ويتميز باستخدامه للفانتازيا الغنية بالصور التي لاتستند إلى زمان أو مكان محددين وهذا يضفي على قصصه شيئاً من الغرابة اللطيفة المستحبه .

حصل الكاتب في عام ١٩٩٥ على جائزة " إيفان كراسك " للأدب السلوفا

عام ١٩٩٧ على جائزة " جين مونيت " للأدب العالمي .